

الدكتور عبد الرزاق أبو العطا البكري الأنصاري

اعترافاً للغزالي

أو
كيف أسخّر الغزالي نفسه

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الحفيظ تروت بالقاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد...

فعندما اعترم أفلاطون نقد فلسفة سقراط اعتذر عن ذلك بقوله :

إن سقراط صديقي وليسكن الحقيقة أعز عندي من سقراط...

وقد تمثل أبو حامد الغزالي بذلك عندما عزم على نقد فلسفة أفلاطون

فقال : إن أفلاطون صديقي وليسكن الحقيقة أعز عندي من أفلاطون !!

وإني بدوري أردد ما قال :

إن الغزالي أستاذي ، وليسكن الحق والحقيقة أولى بالولاء من الغزالي ،

المؤلف

في أول سبتمبر سنة ١٩٧١
بمدار الأنصار بالحلمية الجديدة بالقاهرة

تعريف ، أو : جواب وسؤال

١ - جواب ؟ ...

٢٥ ١ - أبوه

٢٥ ٢ - أمه

٢٥ ٣ - أخوه

٢٥ ٤ - الوصي عليه

٢٦ ٥ - هو نفسه

٢٦ ٦ - مملوه

٢٦ ٧ - اتصاله بالوزير نظام الملك

٢٧ ٨ - اختياره مدرسا بنظامية بغداد

ب - سؤال ؟؟؟

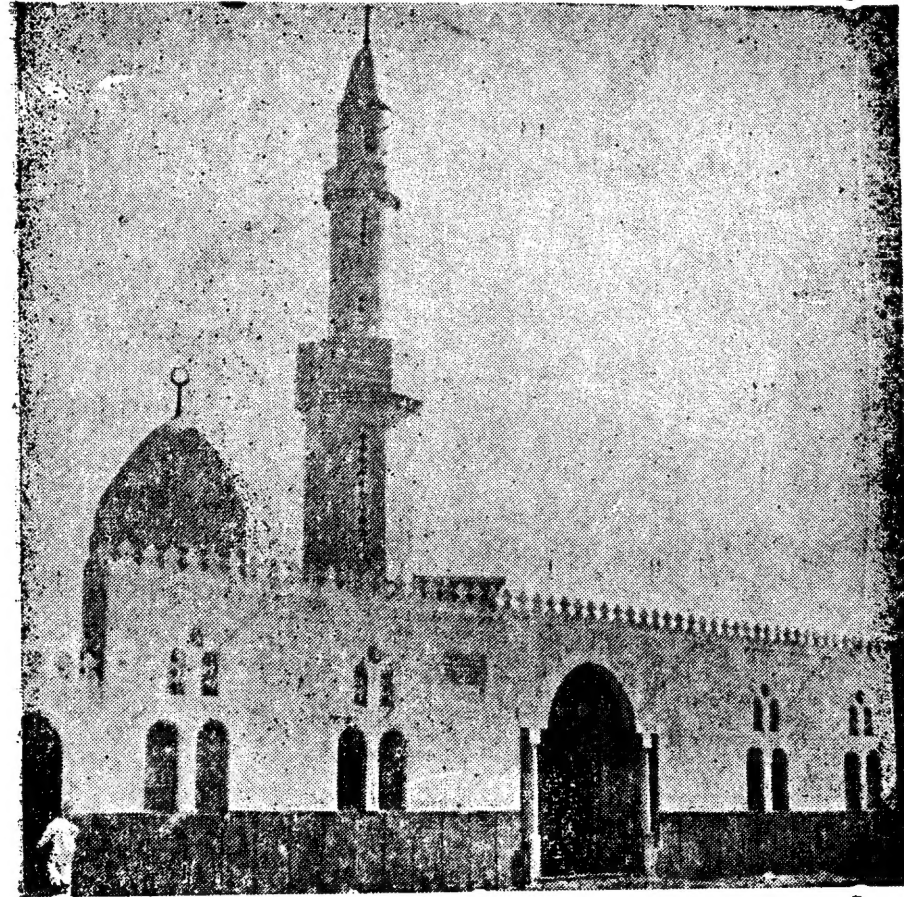
٢٨ ٩ - أسئلة ، أو : نقاط الاعتراف من صاحب هذا التعريف ؟

الباب الأول

١ - لماذا أُلغى الغزالي المنفذ من الفضول ؟

أو : لماذا قُدم إلينا اعترافاته ؟

ملاحظات



مؤسسات المؤلف التتـافية والدينية بإكـوة شرقية (أنظر ص ٦ ملحق)

- ١٠ - أما بعد - سبب تأليف الغزالي المنقذ من الضلال ٢٩
 ١١ - الظروف التي قص الغزالي فيها تاريخ حياته ٣٠
 ١٢ - السبب المباشر في إذاخته تاريخ حياته ٣٠
 ب - كيف درس الغزالي العلوم المختلفة ؟
 ١٣ - كيف درس الغزالي العلوم ولماذا ؟ ٣٢
 ١٤ - لماذا طرح التقليد ظهريا ؟ ٣٣
 ١٥ - الحقيقة ، أو العلم اليقيني ٣٣
 ج - كيف محمد العلوم ، وكيف أعان الشك ، وكيف اعتنهم باليقين ؟
 ١٦ - هل الحواس وسائل العلم اليقيني ؟ ٣٥
 ١٧ - هل الأوليات وسائل العلم اليقيني ؟ ٣٦
 ١٨ - الأحلام بين الحقيقة والشك ٣٦
 ١٩ - الشك يسيطر على الغزالي ٣٧
 ٢٠ - اليقين يصرع الشك ٣٨
 ٢١ - نور للمعرفة واليقين ٣٨

الباب الثاني

الشك بين الغزالي وديكارت

١ - شك الغزالي وإيمانه :

- ٢٢ - ماذا دفع الغزالي لإيراد حكاية شك ؟ ٤٠
 ٢٣ - من أين أنت إلى الغزالي فكرة الشك ؟ ٤١
 ٢٤ - مدى تحويله في الفكرة السفسطائية ٤٢

- ٢٥ - هل نجح في إيراد الأدلة على عدم ثقته بالمحسوسات ؟ ٤٢
 ٢٦ - هل نجح في إيراد الأدلة على عدم ثقته بالأوليات ؟ ٤٣
 ٢٧ - هل حقيقة زاداته الأحلام شكاً فوق شك ؟ ٤٤
 ٢٨ - دوافع الغزالي إلى الافتراضات التي افترضها ٤٥
 ٢٩ - لماذا أسند حكاية الشك في « المستظري » إلى أصحابها ؟ ٤٥
 ٣٠ - الحلقة المفقودة التي وصلت بين شك وإيمانه
 « أو : الفقرة التي قفزها ليصرع الشك باليقين » ٤٦
 ٣١ - بين قوسين ٤٦
 ٣٢ - كيف خرج الغزالي من المأزق الشككي ؟ ٤٧
 ٣٣ - من أين أتى إلى الغزالي النور الذي ألقاه ؟ ٤٩
 ب - شك ديكارت وإيمانه :
 ٣٤ - مراحل الشك للسنة التي سار فيها ديكارت حتى وصل إلى معرفة الحقيقة ٥١ - ٥٤
 ج - شك الغزالي وشك ديكارت وإيمانهما :
 ٣٥ - مؤلفات ومترقات ٥٥
 ٣٦ - ميزان الحكم لدى الغزالي وديكارت ٥٦
 ٣٧ - كل من الغزالي وديكارت وليد يثنه ٥٦
 ٣٨ - الأحلام بين الغزالي وديكارت ٥٧
 ٣٩ - طفرة الغزالي ومنطق ديكارت ٥٧
 ٤٠ - الافتراضات بين الغزالي وديكارت ٥٨
 ٤١ - وحدة التفكير بين الغزالي وديكارت ٥٩

٤٢ - الغزالي متكلم

٤٣ - نور الغزالي فكرة صوفية

٤٤ - ورود هنا وأشواك هناك

٤٥ - أشواك لا ورود فيها

أو : « استنباطات تنفي أن الغزالي قد شك » ٦١ - ٦٤

الباب الثالث

كيف بحث الغزالي عن الحق ؟ وكيف نفق علم الكلام وزيفه ؟

٤٦ - حصر الغزالي الحق في أربع فرق

٤٧ - كيف وثق من وجود الحق عند إحداها ؟

٤٨ - كيف درس علم الكلام وكيف زيفه ؟

٤٩ - نظرة الغزالي إلى كتاب محمد وحديث محمد وأمة محمد ؟

٥٠ - نور القرآن ونور الصوفية

٥١ - وأخيراً

الباب الرابع

دراسة الغزالي الفلسفة ، وتفسيره المتفلسفين

١ - تاريخ هذه الدراسة كما اعترف به الغزالي :

٥٢ - لماذا درس الغزالي الفلسفة ؟

٥٣ - كيف درس الفلسفة ، ومتى ، وأين ، وعلى من ، وماذا رأى ، وبماذا حكم عليها ؟

ج - تحليل هذه الاعترافات :

٥٤ - هل درس الغزالي الفلسفة ليعثر على الحقيقة ؟

٥٥ - أو درسها ليهدها ؟

٥٦ - المجهودات الفلسفية التي قام بها :

أولاً - مجهود دراسي محض

ثانياً - مجهود نقدي سلبي

ثالثاً - مجهود نقدي إيجابي

٥٧ - لماذا أراد نقض الفلسفة والتشويش عليها ؟

٥٨ - الحق الصراح كما نعتقد

الباب الخامس

مجادلة الغزالي مذهب التعليمية

٥٩ - لماذا درس الغزالي مذهب التعليمية ؟

٦٠ - من أين درسها وعرفها ؟

٦١ - كيف درسها ؟

٦٢ - المقدمة والنتيجة التي وصل إليها

٦٣ - السبب الحقيقي في دراسته ومجادلته التعليمية

٦٤ - ماذا في مقدمة فضائح الباطنية ؟

٦٥ - تشوف الغزالي لتسخير علمه الديني لخدمة المستظهر بالله

٦٦ - الأجر الدنيوي الذي يطمع فيه الغزالي

- ٦٧ - تمخير الغزالي في اختيار العلم الذي يريده الخليفة ٨٣
- ٦٨ - أمر الخليفة للغزالي بتسخير علمه الديني في الرد على الباطنية ٨٣
- ٦٩ - المستظهر بالله يحدد النتائج وعلى الغزالي حياكة المقدمات ٨٣
- ٧٠ - خروج الغزالي من حيرته ، بشوره على ضالته ٨٣
- ٧١ - طاعة أولى الأمر أولاً ٨٤
- ٧٢ - والذب عن الدين ثانياً ٨٤
- ٧٣ - والجري وراء الشهرة والشرف ثالثاً ٨٤
- ٧٤ - السر واللباب في هذا النضال ٨٤
- ٧٥ - المعاني واضحة والمقصود أوضح ٨٤
- ٧٦ - هل يمكن أن تخفى الحقيقة في اعترافات الغزالي ؟ ٨٥
- ٧٧ - الغزالي يكتب عن التعليمية لأن السلطان أمره بالرد عليهم أو : « ترجيح في غير احتياج » ٨٦
- ٧٨ - أشواك لا ورود فيها ٨٦
- ٧٩ - هل اختفاء الحقيقة في اعترافات الغزالي كان قصداً ؟ ... ٨٦
- ٨٧ - وهل هذا الاختفاء يقدم في الأمانة العامة للغزالي ؟ ٨٧

الباب السادس

الغزالي والصوفية

- ١ - اعترافات الغزالي الصوفية كما سطرها بنفسه :
- أو لماذا اعتزل الغزالي نشر العلم بغيراد ؟ وعاد إلى نشره ببسببور ؟

- ٨٠ - كيف درس الغزالي علم الصوفية وحصله ؟ ٩٠
- ٨١ - لماذا اضطر أن ينخرط في سلوكهم عملياً ؟ ٩١
- ٨٢ - ملاحظة الغزالي حاله وأعماله ٩١
- ٨٣ - الغزالي على شفا جرف هار ١١ ٩٢
- ٨٤ - إجهاد في التفكير ، وحيرة في التنفيذ ١١ ٩٢
- ٨٥ - هواجس الشيطان ، وأمانى النفس ، وخوف العقاب ٩٢
- تسيطر على الغزالي ٩٣
- ٨٦ - الحيرة تبلغ منتهىها . فتورث عقلته في لسانه ، وحيرة في جنانه ٩٣
- ٨٧ - سقوط الاختيار عنده ، والالتجاء إلى الله ، لجوء الاضطراب ٩٤
- ٨٨ - الغزالي بين الحقيقة والرياء ٩٤
- ٨٩ - هل الغزالي هدف للتجريح من الأئمة والعامّة ٩٤
- ٩٠ - فراق بغداد ، وتفريق للمال ٩٥
- ٩١ - دمشق ، وطن العزلة والخلوة ٩٥
- ٩٢ - فلنسر القافلة إلى الحجاز على بركة الله ٩٥
- ٩٣ - الخلوة بين الزمان ، والمعاش ، والأوطان ٩٦
- ٩٤ - « أمور لا يمكن إحصاؤها ولا استقصاؤها » ٩٦
- ٩٥ - الصوفية ومشكاة النبوة ٩٦
- ٩٦ - الشروط الواجب توفرها في سالك طريق الصوفية ٩٧
- ٩٧ - ماذا رأى الغزالي ؟ وماذا انتهى إليه أمره ؟ ٩٧
- ٩٨ - ماذا فهمه بالذوق ؟ ٩٨
- ٩٩ - درجات للمعرفة ٩٨

- ١٠٠ - الدوافع التي دفعته إلى الخروج من عزلته ٩٨
- ١٠١ - إجهاد في التفكير وحيرة في التنفيذ ١٠٠
- ١٠٢ - وساوس النفس ، ودواعي الهدوء والاطمئنان ١٠٠
- ١٠٣ - السلطان يدعو الغزالي إلى التدريس بنيسابور ١٠٠
- ١٠٤ - كل ما حول الغزالي يدعو إلى ترك العزلة والخلوة ١٠٠
- ١٠٥ - النهوض إلى نيسابور ١٠١
- ١٠٦ - بين ماضي الغزالي وحاضره ١٠١
- ١٠٧ - تدريس ببغداد وتدريس بنيسابور ١٠٢
- ١٠٨ - غرضه من الخروج من بغداد ١٠٢
- ١٠٩ - قصة ١١ ١٠٣
- ج - كشف النقاب عما فات ، ونصوب نحو ما هو آت ؟
- ١١٠ - لماذا كتب الغزالي للمنقذ ؟ ١٠٤
- ١١١ - لماذا تكلم عن نظريتي الشك واليقين ؟ ١٠٤
- ١١٢ - لماذا رفض علم الكلام ؟ ١٠٤
- ١١٣ - لماذا درس بنظامية بغداد ؟ ١٠٥
- ١١٤ - لماذا ناقش الفلاسفة ؟ ١٠٥
- ١١٥ - لماذا ناقض التعليمية ؟ ١٠٦
- ١١٦ - لماذا انحرف في سلك الصوفية ؟ ١٠٦
- ١١٧ - الغزالي رجل القوة والبطولة ١٠٧
- ١١٨ - الغزالي يريد التوفيق بين علم الظاهر وعلم الباطن ١٠٨

- ١١٩ - الغزالي يقوم بمراسيم الصوفية ليصبح صوفيا ١١٠
- ١٢٠ - الغزالي يتغاضى عن الكثير ليحقق هدفه ١١١
- ١٢١ - لماذا هذا الإفصاح المنعم ؟ ١١٢
- ج - قصة الغزالي الصوفية كما هي الحق والواقع ؟
- ١٢٢ - الغزالي ينسب الهدف الأول ١١٤
- ١٢٣ - هل غرض الغزالي من العزلة والخلوة ، سمادة الآخرة ؟ ١١٤
- أو الوصول إلى طريق الصوفية ؟
- ١٢٤ - الجاه ، والمال ، والشواغل ، والعلائق ، عند الغزالي قبل خلوته ١١٦
- ١٢٥ - « العلوم الشرعية غير مهمة وغير نافعة » هكذا يعلن الغزالي ١١٧
- ١٢٦ - نية الغزالي من جميع أعماله ، كسب الشهرة والصيت ١١٧
- ١٢٧ - الغزالي ينتابه تفكير عميق ، فيقدم رجلا ، ويؤخر أخرى ١١٩
- ١٢٨ - همسات العقل الباطن عند الغزالي ١٢٠
- ١٢٩ - تفكيره لمدة ستة شهور ١٢١
- ١٣٠ - أمر الله ، وسر الله ، فطيبه هو الله ١٢٢
- ١٣١ - كيف عاج الغزالي العقبات التي وقفت في طريقه ؟
- أو « الجاه والمال و... الأهل والوطن عند الغزالي بعد خلوته » ١٢٢
- ١٣٢ - كيف يبتعد الغزالي عن الضلال ويقود أخاه إليه ١٢٣
- ١٣٣ - خوف الغزالي من الخليفة والصحاب ١٢٤
- ١٣٤ - آراء أهل زمانه في عزلته ١٢٦

- التدريس ، وبين دخوله نيسابور وهو دته إلى التدريس ١٤٧
 ١٥٣ - براعة المقطع ، أو : حسن الختام ، أو السبب المباشر
 لتأليف المنقذ ١٥٠
 ١٥٤ - العقل الباطن يظهر ما استتر مرة رابعة ١٥١
 ١٥٥ - باسم الله مجراها ومرساها . ١٥٢

الباب السابع

اعتذاره

- أ - الاعتذار الأول ، وهو اعتذار غير مقبول .
 ١٥٧ - هل يمكن أن يقال : إن اعترافات الغزالي صادقة من
 الناحية النفسية ، ولكن طبيعته البشرية لم تمكنه من تحقيقها ؟ ١٥٣
 ١٥٨ - إحساس الغزالي بعجزه عن الوصول إلى ما يريد ، ونقد ذلك ١٥٤
 ١٥٩ - إحساس الغزالي بوصوله إلى ما يريد فعلا ، ونقد هذه النظرية ١٥٥
 ١٦٠ - وأخيراً : استنباط هام ١٥٧
 ب - الاعتذار الثاني وهو ، اعتذار مقبول :
 ١٦١ - الغزالي حجة الإسلام ، ورجل الدين لدى علماء المسلمين ١٥٩
 ١٦٢ - الغزالي فيلسوف الإسلام ، لدى المستشرقين ١٥٩
 ١٦٣ - اعترافات الغزالي : قوة وإيمان ١٦٠
 ١٦٤ - الغزالي أستاذ الفلاسفة الأوربيين في العصور الوسطى ١٦٠
 ١٦٥ - إذا : ماذا بقي للإسلام من رجال إذا كان الغزالي كذلك ؟ ١٦١
 ١٦٦ - كيف نعتذر للغزالي ؟ ١٦١
 ١٦٧ - الغزالي يميز الكذب لسبب ١٦١

- ١٣٥ - تحقيق وتصحيح لا بد منه ١٢٧
 ١٣٦ - تركه التدريس ، واعتزاله الناس ، أمر محال ١٢٨
 ١٣٧ - هل صحيح أن الله سهل على قلبه الإعراض عن المال والولد ؟ ١٢٨
 ١٣٨ - الغزالي يشرح العزلة والخلوة الصوفية الصحيحة ١٣٠
 ١٣٩ - هل عزلة الغزالي صوفية حقاً ؟ ١٣١
 ١٤٠ - الغزالي بين منارة دمشق وصخرة بيت المقدس ١٢٢
 ١٤١ - مقارنة بين خلوة الغزالي العلمية ، وخلوته العملية ١٣٣
 ١٤٢ - لماذا يذكر الغزالي الحج الآن ؟ ١٣٤
 ١٤٣ - إحساس الغزالي باعتراض الناس عليه ١٣٥
 ١٤٤ - هل أصبح الغزالي صوفياً حقاً ؟ ١٢٧
 د - ماذا بعد الخلوة والعزلة ؟
 هل الانخراط في سلك الصوفية المرغوب فيه ؟
 أو الرجوع إلى التدريس المرغوب عنه ؟
 ١٤٥ - لماذا خرج الغزالي من عزلته ؟ ١٣٩
 ١٤٦ - مدى صدق إحساس الغزالي بأسباب هزلته ؟ ١٤٠
 ١٤٧ - العقل الباطل يعلن ما أخفاه الغزالي ١٤٢
 ١٤٨ - مقدمات محكمة تنقج ما يريد الغزالي ١٤٤
 ١٤٩ - العقل الباطن يعلن ما خفي واستتر مرة أخرى ١٤٤
 ١٥٠ - إغضب الله ، والناس ، ولا إغضب السلطان ١٤٥
 ١٥١ - العقل الباطن يعلن ما استتر مرة ثالثة ١٤٦
 ١٥٢ - تشابه في التفكير ، بين خروج الغزالي من بغداد وتركه

١٦٨ - الصلة بين إباجة الغزالي الكذب ، وبين اعترافاته ١٦٣

١٦٩ - الغاية تبرر الوسيلة ، مادام الضرر مقوداً ، والمقصود حسناً ١٦٥

١٧٠ - سبب تقديم هذا الاعتذار ١٦٥

١٧١ - وماذا بقي إذا : بعد هذا الاعتذار ؟ ١٦١

١٧٢ - وما قيمة المنفذ إذا : بعد أن يبقى هذا الاعتذار للغزالي

١٦٧ كرامته والثقة به ؟

١٧٣ - أثر هذا البحث : ١٦٨

أولاً - المنفذ ليس بتاريخ حقيقي للغزالي ١٦٨

ثانياً - اعترافات الغزالي في المنفذ هي مثالية ١٦٩

ثالثاً - تاريخ الغزالي في المنفذ هو قصة وأبو حامد بطلها

رابعاً - على المستشرقين وغيرهم أن يراجعوا ما كتبوا

فقد ينقضوا ما أبرموا

د - خصائص هذه العجائز أو الجبرير في أسلوب ذلك البحث :

١٧٤ - مقدمات ونتائج ١٧١

١٧٥ - إغفالها الاستشهادات ، وبعدها عن الإطالة ١٧١

١٧٦ - جرأة معانيها ١٧٢

١٧٧ - جرأة ألفاظها ١٧٢

١٧٨ - ضرورة لا بد منها ١٧٢

ملحق من أعمال المؤلف

١٥ ملحق تصويبات

تقديم

حين أديت امتحان الدكتوراه أول مرة بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ ، ثار الجمهور في ساعات الامتحان على عبارات رآها تمس الغزالي ، وتنقض من مقامه الجليل ، وزاد في ثورة الجمهور غضبه أعلنها فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان - طيب الله نراه - وكان من شهود الامتحان .

ثم عادت الثورة ، حين ظهر كتاب « الأخلاق عند الغزالي » . وتنقل أوارها بين الجرائد والمجلات في أكثر البلاد العربية ، وما زالت تلك الثورة تلاحقني إلى اليوم ، فلن أنسى أن جماعة من علماء بغداد ، صرحوا بأن هجومي على الغزالي يصدم صداماً عن التسليم على ، يوم كنت ضيف العراق في سنة ١٩٣٨ .

ومنذ أيام قدم إلى « الدكتور أبو العطا » مؤلفه الجديد عن « اعترافات الغزالي » (١) ، فقرأته في ساعة واحدة ثم قررت رده إليه ، مشفوعاً باللام ، لأنه تناول الغزالي - كما أحسست أول وهلة - بما يفض من مقامه الجليل .

ثم رجعت إلى نفسي فقلت : ما الذي يمنع من أن تكون المقدمة موازنة بين ما قال للمؤلف في الغزالي ، وما قلت فيه ؟

(١) وهو الكتاب الأول باللغة العربية ، والخامس من سلسلة خلاصة الفكر الإسلامي التي يصدرها مؤلف هذه الاعترافات حيث طبع منها أربعة كتب ، جميعها باللغات الأجنبية « انظر الوجه الرابع من الغلاف » .

ألا تكون هذه فرصة لترضية روح الغزالي ، وقد قيل . . . وقيل إنى
أسأت إليه ؟

وما هي إلا نظرات في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » حتى رأيت أن
هجوم المؤلف على الغزالي صورة من هجومي عليه فيما يتصل بالاعترافات ،
وعلى الأخص فيما يتعلق بالموازنة بينه وبين ديكرت ، ففيم كانت نورتي إذاً
على المؤلف ، مع أني سبقته إلى ذلك الهجوم بأعوام طوال ؟

يظهر أن فينا جميعاً نزعة إلى مسالة القدماء ، وهي نزعة لا تتحرر منها
إلا حين نحاول الاعتصام بسلطان الفكر والمنطق والعقل .

ويظهر أيضاً أن لروح الغزالي قوة تقهرنا على التعصب له من حين
إلى حين .

وقد اعتذر المؤلف عن الغزالي كما اعتذرت من قبل ، ومع هذا فمن المؤكد
عندي أن الغزالي لو بحث لأهلن صداقته لمن جادلوه على نحو ما جادلناه ،
لأن خصومتنا للغزالي ليست من جنس خصومة معاصريه — وكانوا
في الأغلب من الحاقدين — وإنما هي خصومة كريمة مصدرها الشوق إلى
معرفة الحق بوزن ما ترك ذلك الباحث الكبير من أقوال وآراء .

في المؤلف الجديد الذي أكتب له هذه المقدمة عيب واحد : هو أن
المؤلف « الدكتور أبو العطا » يفترض أن جماهير القراء تعرف تاريخ الغزالي
بالتفصيل ، ولم يبق إلا نقد الاعترافات . وذلك في رأيي عيب جميل ،
فما يجوز أن نفترض الطفولة الأبدية في قراء اللغة العربية ، ولعل فيهم ألوفاً
يعرفون من تاريخ الغزالي أشياء وأشياء !

والسكتاب كله مبني على تزيف اعترافات الغزالي ، وجعلها صورية

لا حقيقية ، وقد دار المؤلف حول هذا الغرض بأسلوب ملفوف ، مراعاة
لعوطف القارئ ، ولم يفته أن ينص في ذيل الصفحة الثامنة والعشرين على أن
ملاحظاته المتفرقة :

« لن نتقص من قيمة الغزالي العلمية ، ولن تفض من كرامته الشخصية بأي
حال ، وإن بدا للقارئ المتعجل عكس ذلك » .

وأقول : إن المؤلف كان يستطيع الاستغناء عن هذا الاحتراس لأن
البحث العلمي لا يعرف التحرز في الكشف عن الحقائق ، ولأن كرامة الغزالي
الشخصية ليست أعز من كرامة العلم ، وهو من كبار الذين أفنوا أعمارهم في
البحث عن الحق .

ومن حسن الحظ أن المؤلف لم يتحرز في مجادلة الغزالي ، ففضى في طريقة
غير هيب . ولعل رسالته الجديدة هذه تهيج المشيعين للغزالي ، فتشوقهم إلى
أبحاث في الرد عليه .

ليتهم يفعلون ! فقد طال ركود الدراسات الفلسفية ، وحرمت من النفع
الذي يشيره الجدل .

ولكنني أسبق أشياع الغزالي إلى مناصرته فأقول :

هل كان يجب على الغزالي أن يخفي ما يساوره من القلق بسبب عجزه عن
الوصول إلى الحقيقة ؟

هل كان يجب على الغزالي أن ينكر تعلقه بالدنيا والأهل والأبناء ،
لتصح خلوته الصوفية ؟

هل كان يجب أن تكون اعترافاته حاوية لجميع شؤون حياته بالتفصيل لتعفيه
من تهمة التزييف ؟

أنا أعتقد أن الغزالي صادق في كل ما رواه ، حتى في التحرز الذي أوجب
كتبان بعض الشئون . . . وفي بعض الفضائل السلبية ما يوازى قوة
الفضائل الإيجابية ، لو نظرنا بعين الإنصاف .

إن من أعجب العجب أن نرى اغتيال الغير رذيلة تهوى بصاحبها إلى
أعمق دركات الجحيم ، ولا نرى من الرذيلة أن نقتاب أنفسنا بعرض مساوئها
على الناس !!

إن تحرز الغزالي في بعض الاعترافات دليل على أنه رجل سليم Normal
وأنا أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأقرر أن رضا الغزالي عما انتهى إليه شاهد
على قوة الثقة بالنفس ، وقد أيد التاريخ هذا المعنى فمكثه من الوثوب فوق
مراحل التاريخ ، وستنقض أزمان وأجيال قبل أن ينال روح الغزالي ثوب
من الخلود .

إن أكثر اللغات معطرة باسم الغزالي ، مع أنه في اللغة العربية من
المظلومين ، فقد جنت شهرته بالتصوف على قيمته العلمية ، وإلا فمن الذي
يعرف أن أبحاثه في المنطق هي خير ما كتب في اللغة العربية ؟

ومن الذي يعرف أنه ذل اللغة التي يكتب بها علم الأصول ؟

ومن الذي يعرف أن أبحاثه في الفقه هي خير ما أثر عن الشافعية ؟

لا يعوز الغزالي إلا أن يكون له تلاميذ روجيهون ، ونحن تلاميذ ذلك
الإمام الجليل ، وسنخدمه بتشريح ما خلف من أفكار وآراء ، لنخلق له
أصدقاء ، نقيم له مدرسة علمية في كل إقليم ، ويتألق اسمه من جديد في سما
المعقول والمنقول .

والرسالة التي أكتب لها هذه المقدمة لتحقيق هذا الغرض ، فهي ثورة على

اعترافات الغزالي - كما فهمها العلماء والمستشرقون - ثورة تنفض
الغبار عن تراث صاحب الإحياء .

ليت ثم ليت !!

ليت الدنيا تسمح بأن نلتفت إلى الغزالي مصوراً في قواء العلمية
والروحانية ، فقد خلق هذا الرجل آفاقاً من الفكر والبيان ، وشغل الدنيا بعقله
وروحه آماداً من الزمان .

إن النسخة التي اعتمدت عليها في قد كتاب الإحياء نسخة أثرية ، وقد
مجمت أن الذي نشرها رجل من بني إسرائيل !

فمن تعود سيطرة الغزالي العلمية والروحانية لينجر في نشر كتبه أقطاب المال ؟
ومن نرى في القاهرة مكتبة لا تنشر غير مؤلفات الغزالي ، وما كتب
في قد الغزالي ؟

لقد استبشرت حين رأيت « دار للكتب الأهلية بميدان إبراهيم باشا »
تنشر هذا المؤلف ، وكان المنظور أن المكاتب التي تقوم بذلك الميدان لا تعرف
غير طرائف الأفاصيص .

مصر بخير وعافية ، جعلها الله إلى الأبد منارة الفكر والعقل والبيان .

زكي مبارك

المفتش بوزارة المعارف

أول مارس سنة ١٩٤٣

تَعْرِيف

او

جواب و سوال

١ - جواب ...

١ - أبوه

أما أبوه فقد كان فقيراً صالحاً غزال صوف وكان دائماً يجلس إلى الفقهاء . ويحترمهم ويحسن إليهم ، ويتمنى أن يكون له ابن مثلهم ، وكان عندما يجلس إلى الوعظ وحلقات الصوفية يتأثر بهم ويرجو الله أن يرزقه بابن يشاكلهم (١) ..

٢ - أمه

أما أمه فلا يعرف من أمرها شيء إلا أنها توفيت وهو صغير .

٣ - أخوه

أما أخوه الأكبر منه سناً ، فقد انحرف في سلك الصوفية شاباً ، واختلى بنفسه ، ودخل بغداد ، وازدحم الناس على دروسه ، وكان دائماً ينصح أخاه الأصغر هذا بقوله :

إذا صحبت للوك فلبس	من التوقى أى ملبس
وإدخل إذا ما دخلت أعمى	وأخرج إذا ما خرجت أخرس

٤ - الوصى عليه

أما الوصى عليه وعلى أخيه الأكبر هذا فقد كان رجلاً صوفياً وصاه عليهما أبوهما قبل موته .

(١) ص ١٠٢ ج ٢ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي

وهو الذي قال لما عندما تعذر الإنفاق عليهما .

« اعلما أني أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل فقير ، ليس لي مال فأواسيكما به . وأرى أن تلجأ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما . » فعلا وكان ذلك سبباً في تعلمهما (١) .

٥ - هو نفسه

أما هو نفسه « الذي نقص له » فهو القائل « طلبنا العلم لنغير الله فأبى أن يكون إلا الله » .

٦ - صلموره

أما بعض معلميه .

ففي صباه كان أحمد بن محمد الراذكاني الذي أخذ عنه طرفاً من الفقه في طوس .

وفي شبابه عندما سافر إلى نيسابور ليلتاق العلم بنظاميتها كان إمام الحرمين أبا للمعالى الجويني الأشعري السفي حيث كان يدرس بها . فدرس عليه المنطق والفقه والأصول والجدل . وظل معه بنيسابور إلى أن توفي سنة ١٠٨٥ م - ٤٧٨ هـ (٢) .

٧ - انتهائه بالوزير نظام الملك

وبعد وفاة أستاذه إمام الحرمين هذا ، خرج من نيسابور وسنه ثمان وعشرون سنة إلى العسكر وهي بلدة قريبة منها .

(١) اتحاف ج ١ ص ١٧

(٢) اتحاف ج ١ ص ١٧

وهناك تعرف إلى الوزير نظام الملك مؤسس للدارس النظامية بالعراق (١) .

هذا الوزير ما كان يحترم إلا أدعياء العلم وقراء الصوفية ، ولما سئل عن سبب ذلك قال :

« إن هؤلاء إذا قربتهم مني ، أثنوا عليّ بما ليس فيّ » .

٨ - اختياره مدرسا بنظامية بغداد

ظل ذلك الشاب الذي تترجم له يختلف إلى مجلس نظام الملك ويتدخل في المناقشات التي تحدث في ذلك المجلس .

وأخيراً وبعد ست سنوات وجد الوزير نظام الملك في ذلك الشاب ما يوفق ورغبته وميوله ، فولاه التدريس بنظامية بغداد ١٠٩١ م - ٤٨٤ هـ وكانت سنة حينئذ ٣٤ سنة فزاول التدريس بها ونال شهرة واسعة « لقوة شبابه وفصاحة لسانه » . ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة » (٢) .

(١) هو أبو علي بن الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (٤٠٨ - ٤٨٥ هـ) ، وزير السلطان السلجوقي ابن أرسلان ثم ابن ملكشاه إذ مكث لهما وزيراً حوالي ثلاثين سنة .

(٢) هذه الفقرات جميعها « جواب وسؤال » ملخصة من الفصل الثاني ص ١٣ من الكتاب الثالث في السلسلة وهو طبع القاهرة سنة ١٩٣٩ La Pensée Philosophique d'Algazali وذلك للدؤلف نفسه .

٩ - أسئرة أو نقاط الاعتراف

أما لماذا ترك التدريس بنظامية بغداد ؟ وبعد عشر سنوات أو تزيد ؛ رجع إلى التدريس بنظامية نيسابور ؟؟

أما لماذا ترك العراق ، واختل بالشام عشر سنوات أو تزيد ، ثم رجع إلى العراق ثانية ؟؟

أما لماذا حمل على الفلسفة ، وسفه المتفلسفين ؟؟

أما لماذا ناهض الباطنية وكتب ضد التعليميين ؟؟

أما قوله « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله » فلا ندري هل كان قوله حقاً وصدقاً ؟؟ أو الحق والصدق أنه طلب العلم لغير الله ، وظل ينشره . ويطلبه لغير الله كما بدأه ؟؟؟

أما الإجابة على ذلك كله فسيقعها علينا هو نفسه في اعترافاته التي سجلها بقلمه والتي سطرها في كتاب له وهو « المنقذ من الضلال والموصول إلى ذى العزة والجلال » والتي سنتكلم عنها بإسهاب في الفصول الآتية .

أما من هو ذلك الصبي - التلميذ - الشاب - الأستاذ - الفيلسوف - الصوفي - للاعتراف ؟؟

فهو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الفارسي الأصل والمولود في ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م بطوس .

والموتى في ٥٠٠ هـ - ١١١٣ م بطوس أيضاً .

الباب الأول

١ - لماذا ألف الغزالي المنقذ ؟

أو لماذا قدم إلينا اعترافاته ؟

١٠ - أما بعد

« أما بعد . فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أحكى لك ما كاسبته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرات عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما احتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته أخيراً من طريقة التصوف ، وما انجلي في تضاعيف تفتيش عن

ملاحظات :

١ - معظم العبارات للنصوص عليها بين قوسين والتي نقلناها من كلام الغزالي في المنقذ فيها شيء من التصرف اللفظي الذي لا عس المعنى المراد لقائله بأي حال .

٢ - اعتمدنا في نقل هذه العبارات على النسخة المطبوعة بطنجة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٤ والتي طبعتها جمعية الفلسفة بها بعد أن تصفحننا جميع طبعات المنقذ فوجدنا أنها أصحها وأدقها .

٣ - أرجو القارئ ألا يتعجل في تكوين فكرة ماعن الغزالي حتى يأتي على جميع هذا البحث الذي أعتقد أن كل باب منه وكل فقرة فيه تكمل الأخرى ، وهذه النقاط عتمة تكون فكرة لن تنقص من قيمة الغزالي العلية ولن تحط من كرامته الشخصية بأي حال وإن بدا للقارئ المتعجل عكس ذلك .

أقول الخلق من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودتي بنيسابور بعد طول المدة .

فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه اعلمو (١) .

١١ - الظروف التي قص الغزالي فيها تاريخ حياته

بهذه الكلمات بدأ الغزالي يقص علينا تاريخ حياته الفكرية في كتابه « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال » .

وقد كان ذلك حول الأيام الأخيرة من سنة أربع مائة وتسعة وتسعين هجرية ، أو الأيام الأولى من السنة التي تليها .

وبعد أن انتهى فعلاً من تأليفه الفقهية والأصولية ، ومن الرد على التعليمية والفلاسفة ، ومن الدعاية والنشر لتقاليد الصوفية وأبحاثهم ، وبعد أن أودع كل عامه إحياءه الخالد .

وبعد أن تخطت سنة الحسين ، وقبل أن تصعد روحه بأربع سنوات إلى الرفيق الأعلى .

١٢ - السبب المباشر في إزماعه تاريخ حياته

وسواء أسأله حقيقة أخذه في الدين حكاية ، فأسأله في استخلاص الحق وبيان ما صرفه عن نشر العلم ببغداد ، وماذا دعاه ثانية إلى نشره بنيسابور و ... أم افترض هو أن هناك سائلاً قد سأله هذا السؤال ، فهذا فضلاً عن أنه

عرض للفكر التي يحتويها الكتاب مرتبة كترتيب الكتاب نفسه ، فهو على كل حال يدل على أن تطوره الفكرية وسيره العلمي فيه بعض الغموض الذي يحتاج إلى شيء من التصويب والإيضاح ، حتى يرد على ماوجه إليه من النقد ، كما يفهم ذلك من سؤاله السابق » ، أو على ما قد يؤجبه إليه في المستقبل .

سيما أن الناس جميعاً قد رأوه يترك التدريس بنظامية بغداد ، ويعتزل الناس عشر سنوات أو تزيد .

ورأوه أيضاً أنه بعد هذا الاعتزال يرجع إلى نيسابور ليقوم بتدريس تلك العلوم نفسها .

والواقع أن هذه الحادثة ، حادثة رجوعه إلى التدريس بنيسابور ، « وهي آخر الحوادث التي سجلها في المنقذ » كانت هي السبب في تأريخه نفسه وفي تسجيله اعترافاته ، أو بعبارة أدق كانت السبب المباشر لكتابة « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال » .

واختيار « (١) » .

١٤ - لماذا طرح الغزالي التقليد ظهرياً ؟

ويحدثنا أيضاً بأنه :

« عندما وجد نفسه اضطراراً لا اختياراً متعطشاً إلى درك الحقائق ، وبأنه عندما رأى صبيان النصارى ينشأون على التنصر ، وغلمان اليهود يدرجون على التهود ، وفتيان المسلمين يشبون على الإسلام ، وعندما سمع حديث محمد عليه السلام : « كل مولود يولد على فطرة الإسلام ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (٢) .

ثم يحدثنا أيضاً بأنه :

« عندما رأى كل هذا انحلت عنه رابطة التقليد ، ونكسرت عليه العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا ، وتحرك باطنه إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية ، وإلى معرفة حقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، وإلى التمييز بين هذه التقليديات التي أوائلها تلقينات » (٣) .

١٥ - الحقيقة أو العلم البقي

وهنا يبدأ الغزالي بتحديد الحقيقة التي ينشدها وبيان العلم الذي يريده أن يعتمده به .

هنا يظهر له :

(١) « مقتض س ٧ » .

(٢) « مقتض س ٧ » .

(٣) « مقتض س ٧ و ٨ » .

ب - كيف درس الغزالي العلوم المختلفة ؟

١٣ - كيف درس الغزالي العلوم المختلفة ولماذا ؟

يحدثنا الغزالي بأنه :

« من الملاحظة إلى الآن ، أي من قبيل المشرين إلى الحسين وهو في حرب وجلاء ، فهو يقتحم بحمار العلوم ، ويخوض غمارها خوض الجسور ، ويتوغل في كل مظلمة ، وينهجم على كل مشكلة ، ويقتحم كل ورطة ، ويتفحص عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشف أسرار كل مذهب » (١) .

« فقرأ للباطنية ، وناقش الظاهرية ، وناضل الفلاسفة ، وأتى على كلام المتكلمين ؟ وحرص على تعرف أسرار المتصوفين » (٢) .

لماذا كل هذا ؟

يجيب الغزالي :

« بأنه يريد أن يميز بين الحق والباطل ، بين للنسن واللبتدع » (٣) .

« وبأن التعطش إلى درك الحقائق « حقائق الأمور » دأبه وديدنه

غريزة وفطرة وضعنا من الله في جبلته ، فليس له فيه حيلة

(١) مقتض س ٥ .

(٢) مقتض س ٥ و ٦ .

(٣) مقتض س ٥ .

« أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقرب منه غلط أو وهم، حتى ولو قلب الحجر ذهباً، والعصا ثعباناً » دليل على عدم صحته ما تفرق إلى المؤمن به ظل من الشك أو حفيف من الإنكار » (١).

وبعد أن يصل الغزالي إلى هذا التحديد يعلن للملأ أجمع :

« إن كل الحقائق التي لا يعلمها على هذا النحو من اليقين هي حقائق لا ثقة بها، ولا أمان معها » (١).

أو بعبارة أدق هي ليست في نطاق العلم اليقيني بأي حال .

ح - كيف جحد العلوم ؟

وكيف أعلن الشك ؟

وكيف اعتصم باليقين ؟

١٦ - هل الحواس وسائل العلم اليقيني ؟

يحدثنا الغزالي بأنه :

بعد تحديده العلم اليقيني، أخذ يفتش عن علومه التي لها صفته، والتي تدخل في نطاقه، فوجد « أن الحسيات والضروريات هي التي يمكن أن تكون لها هذه الصفات » (١).

ولكنه يتشكك فيها قائلاً :

« لماذا لا تكون الحسيات غير موثوق بها كالتقليديات سواء بسواء وهي التي طرحها ظهرياً ؟

وهل حقاً يمكن أن يتطرق إليها الشك ؟

نعم وفعلًا تطرق إليها وأخذ يتسع، فهو إذا تأمل أقوى حواسه وهو البصر، وجده يحس بأنه ينظر إلى الظل فيراه واقفاً، بينما هو بالمشاهدة والتجربة يتحرك تدريجاً، ويحس بأنه ينظر إلى السكو كب فيراه صغيراً في مقدار دينار، بينما الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في القدار » (٢).

(١) « منقذ من ٨ »

(٢) « منقذ من ٩ »

(١) « منقذ من ١٠ »

(٢) « منقذ من ١١ »

يستنبط الغزالي من هذا :

« إن أمثال هذه المحسوسات التي كانت وسائل علمه بها ، وحكمه عليها حواسه ، لا يمكن أن تدخل في نطاق العلم اليقيني ، إذ جاء حاكم العقل فكذبها تكذيباً لا سبيل إلى دافعه » (١) .

١٧ - هل الأوليات وسائل العلم اليقيني ؟

وهنا يقفز الغزالي إلى النتيجة الآتية قائلاً :

« أما وقد بطلت الثقة بالمحسوسات فهل يمكن أن توجد ثقة بالعقلية المؤسسة على الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان . ١٢ » (١) .

ولكن المحسوسات تنهض قائلة له :

بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقلية كثقتك بالمحسوسات ؟

أما كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذبني ؟ ولولا حاكم العقل

لاستمررت على تصديقي !! ؟

لا يمكن إذاً أن يكون وراء إدراك العقل حاكم آخر إذا تجلى كذب العقل

في حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك

الحاكم « الإدراك » لا يدل على استحالة ١٢ » (٢) .

١٨ - المزمع بين الحقيقة والشك

لم يجر الغزالي جواباً عما سبق ، بل زاد شكه وتأييد بما يراه في المنام .

(١) « منقذ » ١١

(٢) « منقذ » ١١ و ١٢

من الأحلام والخيالات التي يعتقد ثباتها واستقرارها ، وعند استيقاظه يعلم أن جميع ما رآه في منامه وهم وخيال .

وهنا يسائل الغزالي نفسه :

« بم تأمن أن تكون هناك حالة « هي غير موجودة لسبب ما » نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوعاً بالنسبة إليها ، وعلى ذلك فكل ماتمته في يقظتك بحس أو بعقل هو حق بالإضافة إلى حالتك الآن .

أما لو عرضت لك تلك الحالة « التي هي لسبب ما غير موجودة الآن » لتيقنت أن جميع ماتمته بعقلك هو خيالات لا أصل لها .

وهنا يفرض الغزالي أن تلك الحالة هي إما أن تكون :

١ - الحالة التي يدعيها الصوفية « حالة الجذب » Estasi فهم يزعمون حين تلابسهم تلك الحالة أنهم يشاهدون أموراً لا توافق هذه للعقول .

ب - وإما أن تكون هي حالة الموت فحمد عليه السلام يقول : « الناس قيام فإذا ماتوا انتبهوا » فلعل الحياة الدنيا هي نوم بالنسبة إلى الحياة الأخرى ، فإذا مات الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهدها الآن . ويقال له حينئذ « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (١) .

١٩ - الشك يسيطر على الغزالي

نعم جالت بفكر الغزالي الخواطر السابقة ، وانقدحت في نفسه ، فحاول لذلك علاجاً ، والعلاج لا يمكن إلا بالدليل ، والدليل لا يمكن إلا أن يكون

(١) « منقذ » ١٢ و ١٣

مركبا من الأوليات ، وقد رأيت سابقا أنها ليست في نطاق علمه اليقيني .

« أعضل الداء ، وشح الدواء ، فظل شهرين تقريبا وهو على مذهب السفسطة ، بحكم الحال لا بحكم القتال » (١) .

٢٠ - اليقيني يصارع الشك

« ولكن بعد انتهاء الشهر انشفاه الله من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات والأوليات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين » (١) .
كيف شفى ؟

كيف دخلت الأوليات في نطاق علمه اليقيني ؟

« لم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قدفه الله في قلبه » (٢)
« ذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف » (٣)

٢١ - نور المعرفة واليقين

« ذلك النور هو الذي أراده إله المسامحين جل جلاله عندما قال : «فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» (٣) .
« ذلك النور هو الذي أراده نبي المسلمين عليه السلام عندما مثل عن معنى الشرح فقال : « هو نور يقذفه الله في القلب » (٣) .

« ذلك النور علامته التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود » (٣)
« ذلك النور هو الذي قال محمد عليه السلام فيه : إن الله تعالى خلق

(١) « منقذ من ١٣ » (٢) « منقذ من ١٣ » (٣) « منقذ من ١٤ »

الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره » (١)

« ذلك النور ينبجس فقط من الجود الإلهي » (٢) .

« ذلك النور يجب التمسك له » « فإن لربكم في أيام دهركم فتحات ألافترضوا لها » (٢) .

« من ذلك النور يجب أن يطلب الكشف » (٢) « ويرتجى العلم اليقيني

وتفتقد الحقيقة والمعرفة Conoscenza

هذا هو شك الغزالي ... وإيمانه كما روى ذلك هو نفسه .

أما تحليله ونقده ؟ أما وجه الحق فيه ومدى الواقع لديه ؟ فإليك النقد ، وإليك التحليل .

(٢) « منقذ من ١٤ و ١٥ »

(١) « منقذ من ١٤ »

الباب الثاني

١ - شك الغزالي وإيمانه

٢٢ - ماذا دفعه لإيراد عبارة شك ؟

أما لماذا أورد الغزالي حكاية الشك مفتتحاً به اعترافاته التي قصها في المنقذ فلأن طريق المفكرين ، ونهج العلماء الأحرار ، هو عدم التقيد بآراء السابقين ، اللهم إلا ما وافق آراءهم ، وحينئذ يعتنقونها لا على أنهم لها مقلدون ، بل لأنهم لما فيها موافقون ، فكأنهم لها مبتكرون .

وهكذا يريد الغزالي أن يدل على أن بحثه في العلوم ، ووصوله إلى الحقيقة ، وإيمانه بالمعرفة إنما كان عن بحثه الخاص ، وتفكيره الشخصي ، واستقلاله الفكري ، فلم يتقيد بشئ المعارف ومختلف العلوم ، بعد أن أتى عليها وعرفها ، فندرج من حجج المتكلمين ، إلى تعاليم التعليمية «الباطنية» ، ومن آراء الفلاسفة إلى لحاح الصوفية ، لم يقلد شخصاً ، ولم يتابع مذهباً ، وإنما طرح ظهرياً كل هذه الحقائق ، واحترف لنفسه طريقاً صخرياً صلباً ، سار عليه حتى اعتصم بالحق ، ولاذ بالمعرفة واليقين .

ولكن هل أمكنه أن يقنعنا بأنه كان كذلك حقاً ؟
أو بعبارة أدق .

هل فكرة الشك التي حكاها الغزالي في المنقذ نبتت في نفسه وبزغت من تفكيره ولم ينقلها عن غيره ؟

٢٣ - من أين أتت إلى الغزالي فكرة الشك ؟

ليس من ريب في أن فكرة الشك في الحقائق ، والتجرد من التقاليدات والتلقينيات ، هي فكرة قديمة أساسها ما في طبع الإنسان من طلب المعرفة لكل ما يجري حوله ، ومن الجهل بها حيناً ، ومن الشك فيها أحياناً ، ومن الوقوف على حقيقتها أخيراً .

أليس الشك هو المرحلة الوسطى لجميع الحقائق ؟

أما فكرة تصنع الشك واقتراضه ، واعتناقه كذهب من مذاهب التفكير ، وكوسيلة من وسائل الوصول إلى المعرفة ، فهي فكرة إغريقية قديمة نادي بها السفسطائيون ، وأخذوها لمقاييس التفكير ، ومعايير الفلسفة .
ليس في كل هذا ريب .

ولكن لم لا يكون الغزالي قد وصل إلى نظرية الشك هذه بفكره المستقل ورأيه الخاص ؟

ولم لا يكون اتفاقه مع السفسطائيين في الفكرة إنما هو من توافق الآراء وتماثل الأفكار ؟

نعم إن الغزالي نفسه قد كفانا مثونة البحث والتخمين ، فقد دلنا على أنه قد عرف حكاية الشك ، وعرف أن السفسطائيين أصحابها ، وعرف أنه نقلها عنهم ، بل وكتبها في أحد كتبه ، وتقدها قبل أن يكتب كتابه المنقذ هذا ، وقبل أن يقصها علينا قصاً نلس منه أنه هو المبتكر لها المخترع لأجزائها .

فهو في كتاب « فضائح الباطنية » (١) طبعة ليدن سنة ١٩١٦ بإشراف J. Gold Ziherl يقول :

(١) « مكتبة الجامعة المصرية تحت رقم ٤٣٧٧ فلسفة » .

« إن السفسطائيين أنكروا الضروريات وخالفوا فيها ، وزعموا أنها خيالات لا أصل لها ، واستدلوا على هذا الزعم بأن أظهر الضروريات هي المحسوسات ومع ذلك فلا يمكن القطع بها .

فهما شاهدت شخصاً وكلته فلا يمكن أن تكون مشاهدته وكلامه دليلاً ناطقاً على حضوره ، إذ لعلك رأيته في المنام ، وكم من منام يراه الإنسان ويقطع به ، ولا يتأري مع نفسه في تحقيقه ، ثم ينتبه على الفور فيتبين أنه لا وجود له » (١) .

٢٤ - مدى تحويره في الفسكرة السفسطائية :

نعم إن الغزالي أخذ فكرة الشك هذه كما رأيت وحوار فيها ونسقتها ، فناقش اليقين الذي تحمله المحسوسات ، ثم الذي تحمله الأوليات الضرورية ، مدعماً رأيه بما يراه الإنسان في المنام ، وهنا يحس الغزالي أنه شك في جميع الحقائق ، وأنه عاجز عن الوصول إلى اليقين ، فيسمى تلك الحالة « حالة الشك الموهنة » مرضاً .

وأخيراً يشفيه الله من هذا المرض .

حكى الغزالي كل ذلك في أسلوب جزل فحل ، خلاب مؤثر ، عاطفي أكثر منه عقلياً ، مفعم أكثر منه مقنعاً .

٢٥ - هل نجح في إيراد الأدلة على عدم ثقة بالمحسوسات

فها هو ذا يحملك على الإيمان بأن حاسة البصر خادعة ، والمحسوس بها وهم وضلال ، لأنك ترى الظل واقفاً بينما هو يتحرك .

من أين عرف وقوف الظل ؟

(١) « فضائح الباطنية » ص ٢١ .

يبصره الخاطف السريع .

من أين عرف تحرك الظل ؟

بنظرة الهادي الرزين ، بتجربته المبينة على البصر المتشد ، والنظر المستديم . وهذه التجربة أصبحت عنده ضرورة عقلية وقاعدة لا تبدل فيها ولا تحول . أو بعبارة أدق كان حكمه الأول غير صحيح لأنه غير شامل ، وكان حكمه الثاني صحيحاً لأنه جد كامل .

أو أن الإحساس هو الذي خطأ الإحساس .

٢٦ - هل نجح في إيراد الأدلة على عدم ثقة بالأوليات ؟

وأيضاً قياساً على الاستنباط الخاطيء السابق من أن هناك ضرورة عقلية وحكمة عقلياً قد كذب حواسه « حاكمه الحس » فأضحت هذه الحواس لا أمان لها . فكيف ينق إذن بالضروريات العقلية ؟

افترض أنه ربما قد يوجد حاكم « لم يعثر عليه حتى الآن » يكذب هذه الضروريات ، كما كذب حاكم العقل حاكم الحس .

وفضلاً عن أن هذا افتراض محض يمكن أن يوجهه إلى أية حقيقة في الوجود ، وفضلاً عن أنه يمكن افتراض حاكم آخر يخطئ الحاكم الذي افترضه ، وهكذا يتسلسل فرض هذا الحاكم إلى ما لا نهاية .

نعم أقول فضلاً عن كل هذا ، فإن الغزالي بنى هذا الفرض على أساس أنه عثر على حاكم عقلي كذب الحاكم الحس .

مع أنك لمست أن هذا الحاكم العقلي هو حاكم حسي ، وأنه لم يكن هناك تصديق ثم تكذيب ، بل كان هناك حكم « حسي خطأ » وحكم « حسي صواب » ،

وأن هناك حاكماً حسيّاً خطأ حاكماً حسيّاً.

وهذا كله فضلاً عن أنه هو نفسه يرد هذا الرأى السفسطاني في فضائح الباطنية السابق الذكر مثبتاً أخيراً :

« إن قول السفسطائيين بالشك في الحسوسات والضروريات ، يجب أن لا يشككنا فيهما ، وكذلك النظريات ، فإنها بعد وصولها من المقدمات تبقى ضرورية لا يتبارى فيها كما في الحسابات (١) . »

٢٧ - هل حقيقة زادته أو مزلزله على شك ؟

نعم هذه هي مشكلة الحاكم الحسى ، ومشكلة الحاكم العقلى ، أما مشكلة الأحلام فيعتقد الغزالي أن الأحلام زادته شكا على شك ، لأنه بماذا يأمن وجود حالة « افتراضها هو » تحيل مارآه في اليقظة ضلالاً ، كما أحوالت اليقظة مارآه في المنام خيالاً .

ولكن هذه الحالة الفرضية كما قلنا لا بد أن يكون لها أساس ككل الافتراضات تؤسس عليه ، ولا بد أن يكون لها قياس ينتجها ، وهدف تنجبه إليه .

ويظهر كما يفهم من كلام الغزالي ، أنه فرض تلك الحالة قياساً على افتراضه حالة الحاكم العقلى حينما عثر عليه فكذب به الحاكم الحسى ، وعلى افتراضه حالة لا وجود لها قد تكذب الحاكم العقلى أيضاً .

فهى كما ترى افتراضات أساسها غير صحيح ، لأنه كما سبق لا يوجد حاكم عقلى ليكذب الحاكم الحسى ، وإنما وجد حاكم حسى يكذب حاكماً حسيّاً .

(١) « فضائح الباطنية ص ٢١ »

٢٨ - روافع الغزالي إلى هذه الافتراضات :

ولكن ما الذى دفعه إلى كل هذه الافتراضات ؟

هناك حقيقة كوتتها من دراسة الغزالي وهى :

أنه على استمداد لأن يأخذ أية فكرة من الفكر ، شرعية أو فلسفية أو صوفية أو حتى سفسطائية كما هنا ، متى أحس بشبه حاجته إليها ، ثم يؤيدها بالأدلة ، ويؤكددها بالبراهين ، من أية نوع كانت ، وبأى أسلوب أتى إليه .

وجد نفسه فى حاجة إلى فكرة الشك التى عثر عليها عند دراسته للفلسفة الأقدمين « السفسطائيين » فاستعملها ، ولكنه يريد أن لا يسنددها فى المنقذ إلى قائلها ، كما أسنددها إلى أصحابها فى كتابه المستظهرى « فضائح الباطنية »

٢٩ - لماذا أسنددها الشك فى المستظهرى إلى أصحابها

أما لماذا أسنددها هناك ولم يسنددها هنا ؟

فلائنه هناك كان يجادل ويناضل علماء اضطلعوا وتسلموا بسلاح الفلسفة وهم الباطنية ، فلا يخفى عليهم أصل فكرة الشك إذا لم يسنددها إلى قائلها ، بل إسنادها يؤيده ، وإخفاؤها يكشفه ويضعفه .

أما هنا فليس هو فى موضع نقاش ، بل هو يكتب ما يكتب فى المنقذ للناس جميعاً ، فأراد أن يوهنا بأن نظرية الشك هذه من تفكيره الخاص . ولهذا فهو يوردها بدافع من نفسه ، ويورد كثيراً من الاعتراضات عليها لينافسها ، وأخيراً يؤيد ما يريد بكلام الله ، وكلام الرسول ، وكلام الفلاسفة ، وكلام المتصوفة !!

أقول : وجد نفسه في احتياج إلى فكرة الشك ، ولكن :
كيف يعطيها الحياة ليناضلها ؟
وكيف يعطى نفسه القوة ليتغلب عليها ؟
نعم بالافتراضات أحيائها كما رأيت .
وبالتصوف تغلب عليها كما سئرى .

٣٠- الحلقة المفقودة التي وصلت بين مكة وإبجانه

نعم بالتصوف تغلب عليها فما نحن نرى أن الغزالي بعد أن شك في كل شيء ، حتى في المحسوسات والمعقولات الأولية ، ومن باب أولى في النظريات والمعقولات العالية ، وضاعف شكه وأكده حلم المنام ورؤى الليل ، فمرضت نفسه وتاه شعوره ، ودام على ذلك شهرين كاملين ، لم يكتب فيهما عن شكه كلمة ، ولم يتحدث بما في نفسه إلى متحدث ، يريد الطبيب ليعطيه الدليل ، ولكن الدليل لا بد أن يكون من المحسوسات والأوليات ، وهي لديه سم زعاف .

بعد هذا ماذا يفعل الغزالي ليخرج من هذا المأزق الشكى الحرج ؟

٣١- بين قوسين

نعم إن من الخير الكثير لمن يريد أن يكتب عن الحالة النفسية للفرد ما ، أن يجتهد في أن يلبس لبوس ذلك الفرد ، ويحيط نفسه بظروفه ، أو على الأقل فليتذكر هذه الظروف جيداً ، وليشعر نفسه أنه بموربها

ثم يتركها « أى نفسه » حينئذ تتناهبها العوامل المختلفة ، والموارض المتباينة ، ثم يلاحظ ويتحدث بما يحس به .

وهنا لا شك في أنه يكون أقدر على التحدث من أى شخص لم يحيط نفسه بتلك الحالة ، ولم يغمرها بهذه الظروف والملايسات .

٣٢- كيف خرج الغزالي من المأزق الشكى ؟

أقول بعد هذا كيف خرج الغزالي من هذا المأزق الشكى ؟

نعم لنفرض أيها القارىء أنك الغزالي وهذه حالتك ، وقد خلقت هذا الشك في نفسك وقويته ، فهل تسكت وتعجز ؟
محال .

لأن الغزالي حينئذ رجل الفكر ، وبطل الإسلام ، وحلال المعضلات .

هل يخرج من هذا الشك بمخرج الشرع ، فيلجأ إليه وهو المستمدة قوانينه ، وحقائقه من كلام الله ، وكلام محمد ، وأخبار أصحابه ، والتابعين ؟
محال أيضاً .

لأنه قد ترك التعليم ببغداد ، وقال عن العلوم التي كان يدرسها حينئذ ، وأهمها الفقه والأصول و... « إنها غير مهمة وغير نافعة في طريق الآخرة » (١) .

هل يخرج بمخرج الفلاسفة ؟
جد محال أيضاً .

(١) « مقتبس من ٦٣ »

لأنهم الفئة التي كتب تهافته في الرد عليها ، فشوش آراءها ، وسفه أحلامها .

لم يبق إذن إلا أن يخرج بمخرج الصوفية ، وهم الذين اعتزل لأجلهم العلم والناس عشر سنوات أو تزيد .

وهم الذين قال فيهم :

« إن طريقهم أقوم الطرق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع ، ليغيروا شيئاً من سيرتهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، فلن يجدوا إليه سبيلاً ، إذ أن جميع حركاتهم وسكناتهم ، ظاهراً وباطناً ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة نور على وجه الأرض يستضاء به » (١) .

نعم إن جميع حركاتهم ، وسكناتهم ، مقتبسة من النبوة ، أي أن جميع أفكارهم وآرائهم يقينية ، بل أقوى من اليقين نفسه .

ولكن كيف يصل إلى يقينهم هذا ؟

ليس هناك من دليل عقلي يركبه ، ليخرج به من باقع الشك واليأس ، فيقوده إلى جنة اليقين والإطمئنان !

السلسلة الفكرية والمنطقية مقطوعة بين الحلقين !

الحلقة الأولى إثبات الشك في كل شيء ، والحلقة الثانية إثبات اليقين في

كل شيء !

(١) « منقذ من ٦٨ »

ولكن هل التصوف يعترف بالعقل ، وبالمنطق ، وبالفكر ، وبالمقدمات وبالنتائج ؟

كلا ! « فالعقل ليس كاشفاً للغطاء عن جميع المضللات » (١) .
« ومن قصر الكشف والمعرفة على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة » (٢) .

إذا الباب مفتوح على مصراعيه ، فليبلغ الغزالي رياض التصوف ، ولو كان مدخلها كسم الخياط .

وفعلاً يدخل الغزالي هذه الرياض ، فيجد أن الله ، أو نور الله بعبارة أدق ، هو الذي يمكنه أن يكون هذه الحلقة المفقودة .

وهنا يؤذن في الناس ؛ بأن الله قدف في قلبه نوراً جعله يؤمن بالحواس ، وبالضروريات أيضاً .

٣٣ - ولكن من أين أتى الغزالي ذلك النور ؟

واسكتنا نعيد السؤال الذي سألناه له عندما انتهى إلى الشك في كل شيء .

نعيده مستبدلين كلمة الشك بكلمة اليقين متسائلين :

هل فكرة اليقين المطلق هذه ، أو بعبارة أدق ، هل فكرة النور الذي قدفه الله في قلبه ، فأرجع إليه الإيمان ، نبتت في نفسه ؛ وبرغت من قلبه ، ولم ينقلها عن غيره ؟

نعم إننا سنجيب كما أجبتنا سابقاً « سنرى » .

(١) « منقذ من ٤٥ » (٢) « منقذ من ١٤ »

فهاهو الغزالي يدلنا على أنه وهو في العزلة حينما كان يقرأ للصوفية. ويتحدث إليهم ، ويكتب عنهم أن قرأ لأحارث بن أسد المحاسبي ، كما كتب هو نفسه في إحيائه (١) :

« إن العقل نور يقذفه الله في القلب به يستعد الإنسان لإدراك الأشياء » .
ويقول الغزالي أيضاً في نفس الصفحة :
« وينكر المحاسبي أيضاً رأى من قال إنه « العقل » يتكون من مجرد العلوم الضرورية » .

نعم أي ورثي أن الغزالي قد قال ما تقدم بالحرف الواحد !
إذن فالعقل الذي يريده الغزالي ليفهم به المحسوسات والأوليات ويطمئن إليها هو ذلك النور .
إذن ليستنقذ الغزالي به نفسه ، فيستلغه من كلام الصوفية ، ويقبض عليه بكلمات يديه ، ويقذف به في قلبه ، فتعود نفسه إلى الصحة والاعتدال ، وترجع الضروريات العقلية مقبولة موثوقة بها على أمن و يقين .
وفعلا قد كان ١١١

ب - شك ديكارت وإيمانه

« صودة سرية اشك ديكارت »

٣٤ - مراحل الشك لديكارت

سار ديكارت في تصوير شكه كما حكاه في التأملات وفي المنهج السيرة الآتية :
المرحلة الأولى

١ - لاحظ ديكارت أنه تلقى طائفة من الآراء الخاطئة على أنها صحيحة ، فأراد التخلص منها ، ولكنه وجد أن ذلك أمر جليل وخطير ، ولهذا انتظر حتى بلغ سن النضج والقوة ، ليقوى على تنفيذ ذلك الأمر الجليل ، واحتمال هذا الشيء الخطير .

وأخيراً حرر نفسه من الأهواء ، والأفكار ، والمشاكل ، واعتزل الناس ، وعكف جدياً على هدم أفكاره القديمة عامة (١) .

المرحلة الثانية

٢ - وبعد أن تحلل من هذه الأفكار ، أخذ ينظر من جديد ، فوجد أن أقوى ما يحصل عليه من المعلومات ، يأتي له من طريق الحواس ، ولكنه جرب أحياناً أن الحواس خادعة .

إذا يجب عدم الركون إلى من خدعنا ، وعدم الاعتراف بما توصله لنا الحواس من الحقائق (٢) .

(١) « تأملات س ٣٥ - ٣٦ » رقم ٢٧٧٩٨ فلسفة بمكتبة الجامعة المصرية .

(٢) « تأملات س ٣٧ » .

(١) « جزء ١ طبع ١٤٨٩ هـ القاهرة من ٧٥ » .

المرحلة الثالثة

٣ - ولكن هل للحقيقة وجود ؟

يقول : إنى أرى فى نومي أشياء أعتقد أنها حقيقية ، بينما عند استيقاظي أجدها وها وخيالا .

ولكنى أحس أن تأكدي حين للنم ، وثقتي بما رأيت ، يبادل ثقتي وتأكدي بما أراه فى اليقظة ، فأيهما الحقيقة وأيها الوهم ؟^(١)

أليس مانراه فى المنام هو شبه أو صورة لما نراه فى الحقيقة ؟

إذاً يجب الاعتراف بأن جميع الصور التى نراها فى أحلامنا ، حتى ولو كانت خيالية ، لها أساس بسيط من الحقيقة كبره الوهم وخلق منه أنواعا ، وضخمه الخيال وصنع منه صنوفاً وألواناً^(٢) .

المرحلة الرابعة

٤ - وإلى هنا يؤمن ديكارت بأنه مع هذا فتلك الحقيقة البسيطة ، وكل ما كان يعتقد حقا ، يمكن أن ينسرب إليه الشك فيقول :

ربما عند جمعي $٢ + ٢ = ٤$ يقدرنى على انخطأ الإله الذى أؤمن بقدرته من صغرى ، بينما أعتقد عدوه أو بالعكس ، لهذا يحسن الافتراض ، وخدع نفسى بأن كل آرائى كاذبة وهمية ، ليصبح اعتقادى القديم كاعتقادى الجديد ، كلاهما وهم وضلال ، فيبطل تحكم القديم فى ، وأصبح خلواً من كل شيء .

إذا لاشيء ، لاسماء ، لاهواء ، لأرض . لا

(١) « تأملات ص ٣٨ »

(٢) « تأملات ص ٣٩ - ٤٠ »

وهنا أصبح غير قادر على الحكم بتاتا^(١) .

المرحلة الخامسة

٥ - ولكن هذه النتيجة وهى عدم قدرتى على الحكم بتاتا . متعبة وشاقة ، وبى كسل يجذبني دون أن أشعر الى مجرى حياتى العادية ، كما أن الإنسان عندما ينعم فى النوم بخيال لذيد ، يخاف الاستيقاظ لئلا يجرمه ، فيعود إلى النوم ثانية^(٢) .

يقول ديكارت بعد ذلك :

وهنا أعود من تلقاء نفسى ودون أن أشعر الى آرائى القديمة ، خيفة أن اليقظة الشاقة التى تعقب هدوء هذه الراحة بدل أن تجلب لى بعض الضياء والنور لمعرفة الحقيقة ، لاتكون كافية لإضاءة ظلمات الصعوبات التى أثبت الآن .

إذاً لابد أن أرجع الى الافتراض التخمينى ، ولكن ليوصلنى الى العلم اليقيني^(٣) .

وهنا تبدأ المرحلة الأخيرة .

يقول ديكارت :

المرحلة السادسة

٦ - بعد هذا أفرض .

أنه لا توجد حقيقة ثابتة فى هذا العالم ، اذ أن كل ما أراه من الأشياء يمكن أن يكون كاذباً .

(١) « ٤٢ و ٤٥ تأملات »

(٢) « ص ٤٦ تأملات »

(٣) « ٤٦ تأملات »

ومادمت قد قت أنا بهذا الفرض شخصياً فأنا إذاً . وجود وكائن -
ومادمت قد فرضت وجودي وكنيتوني فإذاً أنا أفكر .
إذاً أنا كائن مفكر .

إذاً أنا أفكر في أشياء لاتعرف إلا بالفكر وحده .

لاتعرف لأنها ترى وتلمس ، ولكن لأنها تفهم وتدرک بالفكر .

إذاً جميع الأشياء والأجسام تدرک بالفكر لا بالحواس .

إذاً يصبح فكري لا حواسي أساس العلم بالأشياء .

وهنا يصل ديكارت إلى شاطئ الأمان ، فيعتصم بالمعرفة ، ويلوذ
بمنبع اليقين^(١) .

ح - شك الغزالي وشك ديكارت وإيمانهما

٣٥ - مؤلفات ومفردات

١ - من البديهي أن كلا من الغزالي وديكارت قد عرف نظرية
الشك قبلاً .

٢ - ومن البديهي أيضاً أن الغزالي شك في التلقينيات ، وفي
المحسوسات ، والضروريات ، كما شك ديكارت ؛ ولو أن سيرة كل منهما في
إثبات هذا الشك ومعالجته ، قد تنافرت تمام التنافير كما ظهر لك مما سبق .

٣ - نعم زاد ديكارت بحجه إيضاحاً عندما قال :
قد يكون لله دخل في إثبات الحقائق وقاها ، فقد تكون مستنتجاً في
صحيحة بينما يقدرني الله على فهمها كخطأ ، وقد تكون خطأ بينما يقدرني الله
على فهمها كصواب .

٤ - وكما رأيت في المرحلة الرابعة أصبح ديكارت غير قادر على الحكم
على الأشياء ، فوصل الشك في كل شيء لديه إلى القمة كما حصل عند
الغزالي تماماً .

٥ - ورأيت أيضاً كيف تعثر الغزالي في إثبات الشك ، وكيف سار
ديكارت السيرة للفهم العاطية فأعطاك تفكيراً متماسكاً الحلقات .

٦ - أما كيف خرجا من المأزق الشكي ؟ وكيف نزلا من القمة العالية
وانحدارا من القنة الشاهقة ؟ فهذا ما يابن فيه ديكارت الغزالي أيما بياينة
وباعدت بينهما طرقهما كل للمباعدة .

(١) « التأمل الثاني فقرة ٣ و ٢ و ١٢ » تأملات »

وكذلك لمسنا من كتابات الغزالي . أن ميزان الحكم على الحقائق لديه ؛ هو الدين ، هو الأصول الدينية .

فالرأي حق إذا ما اتفق مع الدين ونظرياته .

وصاحب هذا الحق مسلم مؤمن .

والرأي باطل وغير مقبول إذا ما اختلف مع الدين وأصوله ، وصاحب

هذا الرأي ملحد أو زنديق أو كافر .

وهو في هذا متكلم مؤمن بأسلوب المتكلمين ، كما يفهم من حجاجه

للفلاسفة ، والتململين في جميع كتبه التي كتبها عن هؤلاء ليناقشهم فيها .

أما عند ديكارت فيزان الحكم لديه هو المنطق الأرسطي الذي ، هو

للمقدمات والنتائج ، ولا يهم بعد ذلك أن تواضع الألميون على النتيجة ، أو

تنكر لها رجال الدين ، لأن الحق « حسب رأيه » رائده ، واليقين

مطلبه ، وكلاهما هدف يجب أن يستمسك به ولا يجاد عنه .

ولا حظنا كذلك أيضاً أن طريقة كليهما « ديكارت والغزالي »

متأثرة جد التأثير بما وهب كلاهما من بيئة وعمل ، وبما رزقا من تفكير ونظر ،

فديكارت رجل الرياضة التي تعرف المقدمات الدقيقة ، والمستنتجات الأدق ؛

رجل الفكر المنظم ، والرأي المتصل ، فهو لا يمكن أن يكون إلا هكذا :

تفكير منظم ، دقيق ، منتج ، وموصل ، وطبيعي .

أما الغزالي فله من يئته ومن تقلبه في شتى البحوث وتنقله بين وهاد

المعارف والعلوم ، ومن بعده عن الرياضيات التي تساعده على تنظيم فكره

وترتيب مقدماته . وتوثيق الصلة بين الدليل والنتيجة .

لغزالي بسبب كل هذا عذر أيما عذر ، وشفيع ليس لمثله شفيع .

أما في تدعيم الشك بالرؤى في المنام ؛ فقد رد ديكارت على الغزالي رداً

صائباً عندما قال :

إنه يجب الاعتراف ، بأن جميع الصور التي نراها في أحلامنا ، حتى

ولو كانت خيالية ، لها أساس بسيط من الحقيقة كبره الوم ، وضخمه الخيال .

أما كيف رجعت نفس الغزالي إلى الوثوق بالضروريات ؟

فقد كان ذلك بسبب نور قذفه الله في قلبه .

نعم إن هذا النور أو ذاك السبب ، بعيد عنا نحن عامة الناس بل خاصتهم ،

فإنه قد ركب فينا عقولا ، وأودع بين نفوسنا تفكيراً منطقياً ، وأسلوباً

لفهم ، وطريقاً للبحث والاستقصاء ، وما طلب منا أن نستعمل سواء .

وذلك بخلاف ديكارت فقد لجأ إلى الحقيقة الإنسانية ، ونزل إلى مستوى

الطبيعة البشرية « وما هو إلا بشر » عندما قال : « حين وصل إلى الشك في كل

شيء وحين أحس أنه غير قادر على الحكم بقائنا » :

ولكن هذا متعب وشاق ، وبى كسل يجذبني دون أن أشعر إلى مجرى

حياتي العادية ، فكذلك أعود من تلقاء نفسي ، ودون أن أشعر أيضاً إلى

آرائى القديمة .

من يسمع هذا ولا يحس بأنه مع ديكارت ؟

من يسمع هذا ولا يحس إحساسه وشعوره ؟

من يسمع هذا ولا يلمس الشك في نفسه ييزغ ولكن اليقين يكر عليه فيصرعه .

أما الغزالي فيتركنا وحدنا في الشك حيارى تائهين ، بينما يخرج منه وحده ، لأن الله أرسل له نوراً فأنقذه !

٤٠ — الافتراضات بين الغزالي وديكارت

نعم إذا كان الغزالي قد وصل إلى نتيجة بعيدة عن أفهامنا نحن عامة البشر ، فماذا استفاد من فرضياته إذا ؟

وإذا كان لم يستعملها كأسس منطقية ليصل بها بين عالمي الشك واليقين ، وليقرب بها بين عالمنا وعالمه ، فلماذا أجهد نفسه في افتراضها ؟ ١١٩

ومع هذا فلنفرض أن الافتراضات التي افترضها لإثبات الشك صحيحة ، بل ووصلته إلى غرضه ، واستفاد منها ، فهل ترى أن بين هذه المقدمات التي أثبتت الشك ، وبين النتيجة التي أرجع بها اليقين إلى نفسه ، وهي النور الإلهي صلة ما ؟

الواقع أنه لا . لا . بتاتا .

إذا فما كان أحراه ألا يأتي بنظرية الشك ويتعب نفسه في إيرادها وفي إثباتها ، وما كان أجدره بأن يعلن لنا هذه النتيجة (وهي النور الإلهي الذي أرجع إليه اليقين) كأنها هبة من الله نزلت عليه ، ونعمة من السماء أتت إليه ، سيما أنه كما تقدم كان قد قرأها وعرفها من كلام الصوفية ومن لمحات الواصلين .

هذه ما نلمسه من الغزالي ؛ بينما نرى ديكارت قد استعمل هذه الفرضيات وسمح لنفسه بإيرادها عندما اضطر إليها اضطراراً ، وعندما أحس بأنها قد توصله إلى اليقين للنشود ، والحقيقة المبتغاة .

وفعلا كان كذلك سيما أن افتراضاته التي ركب فوقها ، ليعلو فيمسك بتلابيب الحقيقة ؛ هي افتراضات معقولة مفهومة .

« يحسن أن تقارن هذا الفرض السابق « الديكارتي » بحالتي الصوفية وللموت اللتين فرضهما الغزالي » .

٤١ — وحدة التفكير بين الغزالي وديكارت

وإذا ما تركنا هذه الافتراضات جانباً ، وولينا بحثنا نحو الوحدة الفكرية بين السيرة المنطقية لكل من الغزالي وديكارت فإننا نجد :

أن ديكارت سار في إثبات الشك ، ثم سار في صرعه بإحلال اليقين محله ، سيرة فكرية منطقية « إلى حد ما » أرسططاليسية متأسكة الحلقات .

أما الغزالي فقد سار أولاً سيرة سفسطائية مبنية على المغالطة : كما رأيت في مناقشة الحسوسات ، والأوليات ، والرؤى ، ليثبت الشك ، مستنجداً بكلام الله جل جلاله حيناً ، وبكلام محمد عليه السلام حيناً آخر .

وأخيراً عندما أراد إحلال اليقين محله سار سيرة صوفية .

٤٢ — الغزالي منظم

والواقع أنه كمادته دائماً وهي عادة المتكلمين ، من أنهم يثبتون العقائد الدينية بالآراء العقلية ، والحجج المنطقية ، أي أن النتيجة موجودة قبلاً لديهم ، وعليهم فقط إحضار المقدمات ، وجمع الأدلة من هنا والبراهين من هناك .

فالتغزالي في الواقع كان كذلك آمن بفكرة الصوفية وهي : « أن العقل يتغير يقذفه الله في القلب » .

فأراد أن يلبس هذه الفكرة لبوس الفلاسفة ، فيستلغ نظرية الشك السفسطائية ويصورها ، بل ينفخ فيها ليلبسها لبوس الحياة ، ثم يرتقيها بالاقتراضات طوراً ، وبكلام الرسول حيناً ، وبقول الله أحياناً .

وأخيراً يأتي بنظرية الصوفية ليلصقها بها إلصاقاً ولو تنافرت الألوان وتغايرت الأنواع ١١

ولو تباعدت حلقاتها ، وكان عجزها غير مؤلف مع صدرها ١١

٤٤ — ورود هنا وأسواق هناك

لهذا كله اضطر إلى أن ألمس أن ديكارت شك حقيقة ، لأن على شك أسس المعرفة ، ولأن بشكك التصق الإيمان واليقين ، ولأنه منسجم مع نفسه وتفكيره وما يحيط به .

أما الغزالي فإنه افترض أنه شك ، لأنه علم مما قرأ أن هناك نظرية الشك السفسطائية .

وافترض أنه وصل إلى اليقين لأنه علم مما قرأ أن هناك نظرية اليقين الصوفية . فأتى عليهما لايؤلف بين أجزاءهما ، ويربط بين حلقاتهما ، ولكن لمعنى في التباعد بينهما ، فيفترض جد الافتراض ، ويحاول جهد المحاولة ليثبت الشك ، ويحاول كذلك حتى يثبت اليقين .

جعلنا نؤمن معه مغالطة وسفسطائية بالشك ، ثم تركنا خيارى ، وانتقل بنا

طفرة وبغير صلة ، فأخبرنا بأنه وصل إلى اليقين ، مردداً كلمة الصوفية عليها تعزينا : « ترصدوا » فإن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فمعرضوا لها » .

٤٥ — أسواق لا ورود فيها أو استنباطات تنفى أنه الغزالي فمر شك

والآن وبعد أن قدمت بين يديك كل ما تقدم ألا يمكن أن نستنبط ونعلن :

(١) إن الغزالي اضطر لذكر حكاية الشك واليقين ليجعلها كمقدمة لتأريخ حياته التأريخ الفكري .

وليجعلك أيها القارئ لكتابه المنقذ من الضلال : تؤمن بأنه سار في دراسة ومجادلة المذاهب الفكرية سيرة فلسفية حرة ، ولذلك شك في كل شيء وما ألقاه من الوهم والضلال غير ظلال الصوفية ويقين المتصوفين .

وليحملك أيضاً على أن تؤمن بأنه في هذا الدراسة وفي ذلك البحث كان رجل الفكر الحر الذي لا يؤمن إلا بالضروريات ، فاطرح وراءه ظهرياً كلام المتكلمين ، وازدري تعاليم الباطنيين ، وسفه نظريات المتفلسفين ، وأخيراً دخل في زمرة المتصوفين .

(ب) ولأن الطريقة التي عالج بها إثبات الشك هي طريقة سفسطائية ، والتي عالج بها صرعه ، وإحلال اليقين محله هي طريقة ونهج صوفي ، ولأسباب أخرى غير هذا « فقد تأكد لنا أنه قام بذلك » تحليل نظرية الشك ونظرية اليقين « بعد دراسته للصوفية ، ومن المؤكد أنه درسها بعد أن اعتزل الناس للتصوف ، وبعد أن ترك بغداد ، وبعد أن قام أيضاً بدراسة علم الكلام ، وبعد أن ناقش الفلاسفة ، مع أنه يريد أن يقتنعنا في كتابه المنقذ ، حين تكلم عن نظرية

الشك واليقين ، أنه شك في مستقبل حياته ، وقبل دراسته لعلم الكلام والنظر في بقية العلوم كما لمست ذلك سابقا .

(ح) وأيضا يمكننا أن نستنبط أن الغزالي لم يستفد بذلك الشك وبهذا اليقين ، ولم يفد بهما العلم والبحث كما رأيت .

فنظرية الشك التي أحس بأنه أوجدها أو على الأقل عالجها بأسلوبه الخاص ، هي موجودة قبلا ، وعرفها هو كما عرفها الناس جميعاً من السفسطائيين .

ونظرية اليقين التي عالجها ووصل إليها موجودة أيضاً قبلا ، وعرفها هو كما عرفها الناس جميعاً من المتصوفين .

وهذا مما يدل على أن هاتين النظريتين لم تساوراه حقيقة ، ولم تنبعا من قلبه ، وإنما قرأهما ونقلهما وأضفى عليهما أسلوبه اللفظي والحواري والأفخمي ، لا أكثر ولا أقل ؛ ليقدم بهما كتابه : « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذي العزة والجلال » .

يقول : إنه وهو في مستقبل حياته (وعلى قرب عهد بسن الصبا) ساورته نظرية الشك ، ومرض بسبب ذلك شهرين كاملين ، وهذا يدلنا على أن الغزالي يريد أن يقنعنا بأن الشك كان في مستقبل حياته ، وأنه مرض بسبب ذلك شهرين . وهذه حادثة مادية تاريخية تؤكد إرادته إقناعنا بهذا الشك لأنه تصنعه في العلوم ليجعلها من جديد وعلى ضوء جديد .

ولأنه كما قال في « المنقذ » عند دراسته لهذه العلوم : إنه ألف فيها « كذا وكذا » وهي أشياء مادية معينة ، لها تواريخ محدودة تدحض الفكرة السابقة . (هـ) يقول أيضا : إنه وهو في مستقبل حياته ساورته نظرية الشك ، ومرض

شهرين كاملين ، وهو تائه في ببداء الوهم والضلال ، وأخيراً يرجع إليه اليقين والإيمان .

هذه الحالة حالة المرض النفسي ، واليقين الفكري ، هي عند المفكرين والفلاسفة بل عند أصغر الباحث شيء خطير وأمر جلل ، ولهذا لا بد أن يكون لذلك أثران في حياة الغزالي إذا كان ذلك صحيحا ومطابقا للواقع وهما :

أولاً - اتباعه الأسلوب العلمي ، أسلوب البحث والتنقيب ، وعدم التسليم بالأقاويل الضعيفة ، والآراء الفطيرة ، والأحاديث غير الموثوق بها ، مما يتناسب مع تحليله لنظرية الشك ، واعتصامه باليقين ، الذي وصل إليه والذي جعله لا يؤمن إلا بالضروريات فقط .

ولسكن مع كل هذا فنحن نرى في الإحياء وفي غيره مما كتبه بعد تلك الحادثة الخطيرة ، أنه ملوئ بالآراء غير الحمصة ، والأحاديث غير المنعنة ، والحكايات غير المعقولة ، وما كان يوردها ولا يقبل أن يكتبها بعد أن قام بذلك التحليل بأي حال من الأحوال .

ثانياً - وكان لابد أيضا من أن يكتب عن تلك الحالة ، حالة الشك التي ساورته « حينئذ » ، وكيف تغلب عليها بإحلال اليقين ، وذلك لتكون تسجيلاً لما حدث ولتصبح طريقاً لاجباً للمتشككين يسرون على معالمة ، وسبيلا إلى صفار للتفلسفين والبحاث يهتمون بضوئه وأقباسه .

ولكنه لم يفعل هذا مع أنه كتب في الإحياء ، وفي غير الإحياء عن أحوال اعتورته ، وعن نظريات ناقشها ، وعن أشياء كثيرة هي دون نظرية الشك واليقين في الأهمية والخطورة بكثير وكثيراً

أفلا يدلنا كل هذا على أن نظرية الشك واليقين ، لم تعتوره إلا بعد أن كتب هذه الكتب جميعاً ، وحين كتابة للنقد فقط ، وبعبارة أدق إنه ما فكر فيها إلا حين أراد كتابة تاريخ حياته ، أى لا على أنها رواية لما حصل له حقيقة ، بل على أن هذا ما كان يجب أن يكون .

(و) وأخيراً يقول لنا الغزالي نفسه :

« إن المقصود من عرض كل هذه الحكايات « للنقاشات السابقة » هو أن يعمل كمال الجدل في الطلب حتى ينتهي بنا « هذا الجدل » إلى طلب ما لا يطلب »^(١) . هل تصدق أن هذا الكلام ، هو كلام للغزالي نفسه تذييلاً لبحثه في نظرية الشك والمعرفة ؟

هل تريد بعد ذلك إعلاناً وتصريحاً أكثر من أنه كتب ما كتب إرشاداً لطريق الحق ، وحضاً على أن يعمل كمال الجدل في طلب للمعرفة ، والوصول إلى اليقين ؟

الباب الثالث

بحثه عن الحق وزيفه عن الكلام ونقده المتكلمين

٤٦ — مصر الغزالي الحق في أربع فرق

بعد أن شفا الله الغزالي من مرض الشك ، فقد في قلبه باليقين ، أخذ في البحث عن الحقيقة ، فوجد أنها لا تدعو أن تكون لدى :

« المتكلمين ، أو الباطنية « أصحاب التعليم » أو الفلافة ، أو الصوفية . فإن شد الحق عنهم فلا يبقى في دركه مطمع ، فابتدر لدراستهم مبتدئاً بعلم الكلام ، ثم بنظريات الفلسفة ، ثم بتعاليم الباطنية ، وأخيراً بالتمسك في دراسة الصوفية^(١) .

٤٧ — كيف وثق من وجود الحق عند إمرأها

ولكن الغزالي يقذفنا بالنتيجة قبل أن يكون مقدماتها كمعاداته دائماً كما رأيت وكما ستري لأنه :

يريد أن يبحث عن الحق :

(أ) فلماذا قصر البحث عنه في هؤلاء الأربعة ؟

ذلك لأنه لا يعرف سواهم .

(ب) ولماذا آمن بأن الحق لا يبدوهم^(٢) ؟

(١) « منقذ من ١٦ — ١٧ » .

(٢) « منقذ من ١٦ » .

(١) « منقذ من ١٥ »

ذلك لأنه عرف قبلاً ، أن الحق الذي اعتنقه هو عند الصوفية لاغير ،
 أو لأنه يريد عمل مقدمات صورية ليستنتج هذا ١١
 (ح) ولماذا لم يتطرق إلى ذهنه أنه قد يجد الحق بجانب الشكل ، مهتدياً
 إليه بنفسه ، وبأسلوب خاص به ، ومغاير لأسلوب الجميع ؟
 ذلك لأنه آمن أيضاً بأنه : إذا شد الحق عنهم ، فلا يبقى في دركه مطمع (١).
 أي أنه حكم على نفسه بالعجز عن ابتكار طريق للحق ، غير الطريق
 الذي احتفزه سواه ١١
 فهو إذاً ؛ قد حدد لنفسه الطريق الذي يجب أن يسير فيه ، والذي
 مهته غيره ١١

إذاً هو مقلد معتصم بالتقليدات ١١
 وهو حين يقلد يعلم ويجزم بأنه مقلد ١١
 بل ولا يريد إلا أن يقلد ١١
 أمر واضح وفي غير احتياج إلى تعليق ١١
 ولهذا فهو يقول :

٤٨ - دراسة علم الكلام وتزيفه

بدأت بدراسة علم الكلام فعملته وصنفت فيه ، فصادفته علماء وافياً
 بمقصوده ، من حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها من تشويش أهل البدعة .
 ولكن اعتمدت طائفة من اللسكلمين في ذلك على مقدمات تسلموها من
 خصومهم واضطروهم إلى التسليم بها إما :

(١) « منقذ ص ١٦ » .

التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو لجرد أنها من الأخبار ، أو القرآن .
 د ولكن هذا قليل النفع في جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً
 أصلاً ، ثم يقول بعد ذلك :
 د ولهذا لم يكن الكلام في حق كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه
 شافياً « (١) .
 نعم ؛ قد حصل لغيري بسبب علم الكلام ، ما أنقذه من ظلمات الخيرة ،
 ولكن كان حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور ، التي ليست من
 الأوليات (٢) .

٤٩ - نظرة الغزالي إلى كتاب محمد ومديته محمد وأمر محمد

ومعنى ذلك أن الغزالي يعلن أنه درس علم الكلام ، واقتنع بأنه لم يجد
 الحقيقة التي يتشدها في طياته ، ولم يرتشف زلال الإيمان من بين أنهاره .
 لماذا ؟

(١) لأن رجاله مقلدون ١١١

(ب) ولأنهم يسرون وراء إجماع الأمة الإسلامية .

(ح) ولأنهم يقبلون آي القرآن لجرد أنها من كلام الله .

(د) ولأنهم يقتصرون بأخبار محمد ، لجرد أنها من حديث رسول الله .
 ماهذا ؟ ؟

ثار الغزالي على التقليد ، ولم يعتبره مصدراً من مصادر اليقين ١١

(١) « منقذ ص ١٩ »

(٢) « منقذ ص ١٨ و ١٩ »

نار الغزالي على إجماع الأمة لأنه لم يشف غلقه ، ولم يأخذ بيده إلى شاطئ
الحقيقة والإيمان !!

ولن تناقشه في هذين !!

ولكن :

كيف ينور على كتاب الله ، وكلام محمد ، فلم يكن الكلام الذي من
أسسه القرآن والحديث في حقه كافياً ، ولا لدائه شافياً ؟ !

فهل نسي الغزالي ما قامه سابقاً : من أن النور الذي وقر في صدره ،
والذي أرجع اليقين إلى نفسه ، والذي أعاد إلى الضروريات العقلية اطمئنانه
بها ، إنما هو نور قذفه الله في قلبه ؟ !

وهل الله الذي قذف ذلك النور ؟ والذي أرجع إليه الاطمئنان ؟ ليس هو
نفس الله الذي انتزعت مقدمات علم الكلام من قرآنه ، والذي أعطى الناس
جميعاً كتابه ، فأشعل فوق رؤوسهم نوره ، ليهديهم إلى الصراط السوي ،
وليدلهم على طريق الحق ، ومنبع اليقين ؟ !

أو الله الذي قذف ذلك النور في قلبه ، غير إله القرآن ، وغير إله
المسلمين ؟ ! سنرى :

٥٠ — نور القرآن ونور الصوفية

وهنا أنقل ما كتبه في المقدمة عن ذلك النور الصوفي إذ قال : « هو ذلك
النور الذي أَرادَه إله المسلمين ، عندما قال : فمن يرد الله أن يهديه يشرح
صدره للإسلام .

ذلك النور ؛ هو الذي أَرادَه نبي المسلمين عليه السلام ، عندما سئل عن
معنى الشرح فقال :

هو نور يقذفه الله في القلب ، (١) .

إذاً : ذلك النور الذي آمن به الغزالي ، والذي أرجع إليه اليقين ، هو
نور إله المسلمين وإله محمد ، وإله القرآن .

وهو نفس النور الذي شمع من كتاب الله ، ومن كلام محمد ، والذي اعتمد
به المتكلمون .

أجل ؛ فلماذا آمن الغزالي بذلك ، ورفض ذلك ؟ !

لأن النور هناك ؛ نور ذكره الصوفية وهو يشايعهم ، والنور هنا ؛ نور
اعتمد به الكلاميون ؛ وهو يتظاهر بأنه يماندهم .

فهو قد قبل الحق هناك ؛ لأنه أتى ممن يعتقد أنهم أشياعه ، ورفض نفس
الحق هنا ؛ لأنه نبع ممن يقرض أنهم أعداؤه .

٥١ — وأخيراً

نعم ؛ وأخيراً وبعد الذي قدمناه ، ألا يمكننا أن نقول :

إن كل ما صرح به الغزالي هنا من اعترافات ، لدى بحشه عن الفِرقة
الصائبة ، وعن اليقين الذي يفشده في علم الكلام ، وعن ... إنما هي اعترافات
كاعترافاته التي قدمها بين يدي نظرية الشك سواء بسواء .

أي أنه لم يفكر في هذا البحث ، ولم يطلب ذلك اليقين ، إلا حين تدوينه
تاريخ حياته في المنقذ .

ولهذا لم يواته الفكر السليم ، والمنطق المستقيم « في هذا الموضع »
ولو واثته الألفاظ أرسالا ، وانهاالت عليه الجمل انهبالا ، مُستَلَبَّة من هنا ومن

هناك ، في تناقض عجيب ، وتباين أعجب وأغرب !!

نعم ؛ ولو ...

(١) « منقذ ص ١٤ » .

وعلم يقيناً كذلك : أن رد هذا المذهب — مذهب الفلسفة — قبل فهمه ،
والاطلاع على كنهه ، رمى في عمية (١) .

وعلم أخيراً : أنه لم يوجد أحد من علماء الإسلام صرف همه وعنايته
إلى ذلك (٢) .

٥٣ — كيف درس الفلسفة ومنى وأين وكى وماذا رأى وبماذا همك عليهم ؟
بعد أن آمن الغزالي بكل ما تقدم يحدثنا قائلاً :

« فشمرت عن ساعد الجد ، في تحصيل ذلك العلم ، من الكتب بمجرد
المطالعة . ومن خير استعانة بأستاذ !

وكان ذلك في أوقات فراغى من التصنيف ، والتدريس ، في العلوم الشرعية .
وكنيت متموّلاً بالتدريس ، والإفادة لثلاثمائة نفر من الطلبة .

وكان ذلك ببغداد .

فأطلعنى الله بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلطة على منتهى علومهم في
أقل من سنتين . .

ولكنى ظلت مواظباً على التفكير في ذلك العلم بعد فهمه ، قريباً من
سنة أخرى ، أعاوده وأردده ، وأتقّد غوائله وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه
من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخيل ، إطلاعا لم أشك فيه .

وأخيراً : آمنت بأنهم مع كثرة ، أصنافهم يلزمهم حمة الكفر والإلحاد ،
حيث أن السكل بجانب للحق الذى ينشده ، بعيد عن الإيمان الذى يبحث عنه ،
وإن تفاوت الأرائل والأواخر ، في القرب منه والبعده عنه « (١) .

(١) « منقذ من ٢١ » (٢) « منقذ من ٢١ » (٣) « منقذ من ٢١ و ٢٢ » .

الباب الرابع

دراسة الغزالي الفلسفة وتسفيهمه المتفلسفين

١ — تاريخ هذه الدراسة كما اعترف به الغزالي

بعد أن آمن الغزالي بأن الحق الذى ينشده ، واليقين الذى يرتجيه ، لا يوجد
بين آى علم الكلام ، انساب بين هضاب الفلسفة الخشنة ، وممارجه
الصخرية الوعرة .

٥٢ — لماذا درس الغزالي الفلسفة ؟

فأخذ يحدثنا حين بدأ دراسته لهذا العلم « علم الفلسفة » مبيناً سبب هذه
الدراسة قائلاً (١) :

« إنه علم يقيناً : أن ما ذكر في كتب المتكلمين ، من الرد على الفلاسفة ،
إنما هي كلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد » (٢) .

« وعلم يقيناً — أيضاً — أنه لن يقف باحث على فساد عذا العلم — علم
الفلسفة — « وكذا أى علم آخر » إلا إذا حصله ، وعرف مغاوره تفصيلاً
وتدقيقاً ، حتى يساوى فيه أعلم الناس بأصله ، بل يزيد عليه ، ويجاوز درجته ،
فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب هذه العلم ، وإذا ذاك ؛ يمكن أن يكون ما يدعيه
من فساده حقاً وصحيحاً (٣) .

(١) « منقذ من ٢١ » (٢) « منقذ من ٢١ » (٣) « منقذ من ٢١ »

إلى هنا انتهت حكاية الغزالي عن الفلسفة

لم درسها؟ وكيف؟

ومتى وأين؟

وكم؟ وعلى من؟

وماذا رأى؟

وبماذا حكم عليها وعلى الفلاسفة أجمعين؟

هذه قصة فلسفته، وتلك اعترافاته عنها؟

فما نصيبها من الحق، وما قسطها من الواقع؟

هذا ما نتحدث عنه الآن فنيين:

هل درس الغزالي الفلسفة ليعثر على الحقيقة؟ أو درسها ليهدها؟

ب - تحليل هذه الاعترافات

٥٤ - هل درس الغزالي الفلسفة ليعثر على الحقيقة؟

فأما ما يؤيد النظرية الأولى وهي - إن الغزالي درس الفلسفة ليعثر على الحقيقة - فيمكننا أن نلخصه فيما يأتي:

إن الغزالي أعلن مرارا وتكرارا: بأنه في هذه الجولة الدراسية، بين علم الكلام وبين الفلسفة وغيرها من العلوم، إنما هو باحث عن الحقيقة^(١).

وأن التمعش لدرك الحقائق هو غريزة وفطرة وضعتنا من الله في جبلته^(٢) وأنه باحث عن الحق والمبطل^(٣).

ولما لم يجد ذلك في بقاء علم الكلام أتى إلى هضاب الفلسفة ليجث عنها^(٤) الحقيقة.

ولهذا فقد أخذ De Boer أقواله هذه بدون مناقشة فقال:

« إن الغزالي درس الفلسفة، ليجد طريقا للخروج من الشكوك التي اعتورته، وأنه أراد طمأنينة القلب، وتذوق الحقيقة العليا^(٥) ».

هذا ما قاله الغزالي، وهذا ما وافقه عليه De Boer « وهي كلمات عامة،

(١) (متنذ ص ١٦)

(٢) (متنذ ص ٧)

(٣) (متنذ ص ٥)

(٤) (متنذ ص ٢٠ و ٢١)

(٥) T. J. de Boer in Geschichte der philosophie in Islam 1901

pa. 138 - 150

وجمل غير محدودة .

وأما النظرية الثانية وهي : إن الغزالي درس الفلسفة ليهدمها .

٥٥ - أو درس الفلسفة ليهرمها ؟

فإننا بعد أن نقرأ له ما تقدم ، نلاحظ :

١ - أنه في مقدمة مقاصد الفلاسفة « وهو الكتاب الذي ألفه قبل التهافت » والذي ألفها قبل أن يترك بغداد للعزلة والخلوة . يقول :

« إني التمت كلاما شافيا في الكشف عن تهافت الفلاسفة وتناقض آرائهم ، فرأيت قبل بيان تهافتهم ، أن أقدم كلاما وجيزا ، مشتملا على حكاية مقاصدهم ، من غير تمييز بين الحق والباطل ، وأورده على سبيل الحكاية مقرونا بما اعتقده من أدلة لهم . »

وفعلا كان الغزالي أمينا في هذا العرض ، ماهر في ذلك الإخراج .

ب - ونلاحظ أيضا : أنه يؤكد في التهافت ، أنه درسها ليسفها وينقضها ، وأنه ألفه لهدم أفكار الفلاسفة ، والنشويش عليهم ، وإبطال آرائهم ، وأنه قال في نهاية للسؤال الأولى :

« ونحن لم نلتزم في هذا الكتاب إلا تكذيب مذهبهم ، والتغيير في وجوه أدلتهم ، بما نبين تهافتهم ، ولم نتطرق للذب عن مذهب معين ، فلذلك لانخرج عن مقصود الكتاب ، إذ غرضنا إبطال دعواهم ، أما إثبات المذهب الحق ، فنسنت فيه كتابا بعد الفراغ من هذا إن ساعد التوفيق إن شاء الله ، ونسحقه : « قواعد العقائد » ونعتني فيه بالإثبات كما اعتنينا في هذا

الكتاب بالهدم (١)

ح - وأنه قال أيضا في مقدمة التهافت بالقسم الثالث .

« ولذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم « الفلاسفة » إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا به (٢) . » وقال أيضا في نهاية مسألة - بيان تلبيسهم إن الله صانع العالم وإن العالم صنعة .

« فإن قال قائل : فإذا أبطلتم مذهبنا ، فإذا تقولون أنتم ؟ قلنا : نحن لم نخض في هذا الكتاب خوض ممد ، وإنما غرضنا أن نشوش دعائهم وقد حصل (٣) . » ولكن تد يفهم من هذا :

أنه قرأ للفلاسفة كباحث عن الحق ، فلما وجد الحق نابيا عنهم ، أراد الرد عليهم في التهافت ، ولكنه اضطر قبل ذلك ، أن يبين لهم أنه فهم كلامهم ووعاه ، وعرف لفظهم ومعناه ، حتى يأتي بعد ذلك نقده نقد الواثق العارف لا نقد الجاهل للنسفسط ، كما فعل كثير من المتكلمين .

نعم قد يفهم ذلك ولكن يمنعه :

ما صرح به في المنقذ : من أنه رأى كثيرا من المتكلمين ، الذين تقدوا الفلسفة إنما تقدوها بكلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد .

٥٦ - مجهودات الغزالي الفلسفية

ولأنه عندما بدأ التدريس في سنة ٤٧٤ هـ بنظامية بغداد للعلوم الشرعية

(١) « تهافت ص ٢٠ - المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣١٩ هـ »

(٢) « تهافت ص ٥٠ » (٣) « تهافت ص ٢٢ »

والأصولية والكلامية. أحس بأنه مطالب لأنه من المتكلمين المدرسين ،
ولأنه تلميذ ذلك البطل المفقود ، بطل علم الكلام ، ورجله الفذ — إمام
الحرمين — أحس بأنه مطالب بسد هذا النقص ، وبإحالة هذا التبديد والتناقض
في حجج المتكلمين ، الذين ردوا على الفلسفة ونقدوها ، إلى حجج سليمة ،
وبراهين واضحة مستقيمة ، فقام بمجهودات ثلاثة :

أولاً — بمجهود دراسي محض : حين بدأ دراسة هذا العلم دراسة استيعاب
وتحصيل ، وتحقيق وتفصيل ، وكانت نتيجة هذا الدرس كتابة « مقاصد الفلاسفة »
في أواخر سنة ١٤٨٦ هـ .

ثانياً — بمجهود نقدي سلبي :

وهو ما قام به في كتابه : « تهافت الفلاسفة » التهافت الذي وعده به في
المقاصد ، حيث أن المقصود من تأليفه كما قال : هو التشويش على الفلاسفة
وتسفيههم ، والرد عليهم وأبطال آرائهم لا غير (١) ، وكان ذلك في ١١ محرم
سنة ١٢٨٨ هـ وكانت سنة حينئذ ٣٨ سنة ، أي قبل أن يخرج من بغداد للقرنة
والخولة ، بنحو أحد عشر شهراً — لأنه خرج في ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ —
وقبل أن تفتابه الأزمة النفسية ، التي خرج على أثرها من بغداد ، بنحو
خمس أشهر ، حيث أن أولها كان رجب سنة ١٢٨٨ هـ وهذا يخالف ما قاله
De Beer . من أنه ألف التهافت بعد خروجه من بغداد بقليل (٢) .

(١) « تهافت من ٣٠ و ٢٢ »

(٢) تاريخ الفلاسفة الإسلامية من ١٢٨٨ — ١٣٠٠ إلى De Boer .

ثالثاً — بمجهود نقدي إيجابي :

وهذا ما وعد به في كتابه — تهافت الفلاسفة — أكثر من مرة ، بأنه
سيؤلف فيما بعد كتاباً ، يذكر فيه رأيه في كل المسائل التي هدمها في تهافته
ونقضها ، ويسميه قواعد العقائد ، وقد قام به هذا الكتاب فعلاً ، وسماه
قواعد العقائد أيضاً . وقد كان الحلقة الختامية لمجهوداته الفلسفي (١) إذ ألفه في
القدس بعد خروجه من بغداد مباشرة ، وأدبجه بالجزء الأول من كتاب إحياء
علوم الدين .

إذاً :

بعد هذا التفصيل لتاريخ الغزالي الفلسفي الذي أخذ من تاريخ حياته
الحقيقي ، والذي ترى ترابط حلقاته ، وتماسك أجزائه ، وتسلسل مقدماته .
ألا يمكننا أن نجزم بأنه درس الفلسفة لينقضها ، ويشوش عليها ، كما
قال هو نفسه ، واعترف بذلك في كتابه المنقذ كما رأيت ، وكذلك في
التهافت أيضاً؟؟

أما أنه لماذا نقضها؟ وسفه أصحابها؟

٥٧ — لماذا أراد نقض الفلسفة والتشويش عليها؟

فلأجل أن يكون هو المتكلم ، الذي عرف كيف يقالها ويصرعها ،
فيسكت الفلاسفة ، ويخبت أنفاسهم ، ويخمد شهرتهم ، حتى يكون جديراً
بأن يصبح صارع الفلسفة ، وهادم المتفلسفين .

(١) انظر نهاية بحثه في المسألة الأولى في التهافت وهي : إبطال مذهب الفلاسفة في

أزلية العالم .

ولهذا نجده في إحيائه يقول : إنه ألف هذا الكتاب « قواعد العقائد »
الذي ذكره في تهافته والذي هو الحلقة الختامية لمجهوده الفلسفي .
يقول : « إنه ألفه لبيان العقيدة التي قلما أهل السنة (الأشاعرة) عن
السلف » .

مع ملاحظة أنه ليس فيه أي مجهود فلسفي - بتاتاً لدرجة أن الغزالي
يصرح بأنه :
« لا يمكن أن ينفع بكتابه هذا إلا العوام قبل اشتداد تعصبهم أما
الذي يعرف شيئاً من علم الكلام قلما ينفعه هذا » (١) .

٥٨ - الحق الصراح

وبعد هذا ألا يمكننا أن نجزم بأن اعترافات الغزالي الفلسفية في المنقذ ،
الذي أרך به حياته الفكرية ، تقوم على شقين :
الشق الأول : أنه درسها بعد دراسة علم الكلام ، بخنا عن الحق الصراح ،
وجرياً وراء الإيمان ، وهذا ما أبنا أنه لا يتفق بتاتاً مع

الشق الثاني : من أنه درسها لينقدها ويهدمها ، ويسفها أصحابها ، ويسد
النقص الذي لم يقدر على إكماله المتكلمون ، فيضحي هازم الفلاسفة ،
وحجة الإسلام ، وهذا ما يتفق مع الحق الصريح والواقع الذي
لا ريب فيه .

فاعترائه من هذه الناحية صحيح إذاً ، ولو لم يرض به بعض كبار
المستشرقين (٢) .

(١) إحياء ص ٣٦ « مقدمة قواعد العقائد » . (٢) يرجع في هذا الفصل إلى :
الغزالي كفيلاسوف « بالفرنسية طبع القاهرة سنة ١٩٣٩ » للباحث نفسه .

مجادلة الغزالي مذهب التعليمية

بعد أن انتهى الغزالي كما رأيت سابقاً ، إلى أن الفلاسفة جميعاً موسومون
بالكفر أو الإلحاد (١) وأن الحق الذي يطمع فيه ، واليقين الذي يبغيه ، بعيد
عنهم بعد السماء عن الأرض .

وبعد أن انتهى من تحصيل علم الفلاسفة وتزييفه .

« وإلى أن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بكل شيء ، ولا كاشفاً للظواهر من
جميع المعضلات (٢) » .

٥٩ - لماذا درس الغزالي مذهب التعليمية؟

بعد أن انتهى من كل ذلك ، نراه يدلي بأسباب دراسته لمذهب
التعليمية قائلاً :

١ - « وكانت حينئذ قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق
تحديثهم بمعرفة الأمور ، من جهة الإمام المعصوم ، القائم بالحق - أي لا من
جهة القرآن والسنة والعقل - فعن لي أن أبحث عن مقالاتهم ، لأطلع على
حافيتهم (٣) » .

(١) « منقذ ص ٣١ و ٣٣ » . (٢) « منقذ ص ١٥ و ١٤ » .

(٣) « منقذ ص ٢٥ » .

وقد اتفق أن ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب
يكشف حقيقة مذهبهم ، فلم تسعى مدافعته ، وصار ذلك مستحسناً من خارج ،
ضمنية للبائع الأصلي من الباطن ، (١) .

يقول أيضاً :

٦٠ - من أين درسها وعرفها ؟

« فابتدأت بطلب كتب وجمع مقالاتهم (١) :

وكان قد بلغنى بعض كلماتهم للمستحدثة ، التى ولدتها خواطر أهل العصر ،
لأعلى للنهاج للمهود من سلفهم (٢) .

وكنيت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إلى ، بعد
أن كان قد التحق بهم ، واتحل مذهبهم (٣) .

٦١ - كيف درسها ؟

« ولهذا : جمعت تلك الكلمات ورتبتها محكمًا . مقارنًا للتحقيق .

واستوفيت الجواب عنها استيفاءً أنكره على بعض أهل الحق ، لأنى أبالغ

فى تقرير حجبتهم .

ولكنى اضطررت إلى ذلك ، لأن هذا الصاحب السابق المختلف إلى ،

حكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين فى الرد عليهم ، مع أنهم لم يفهموا

بعد حجبتهم .

(١) « منقذ من ٤٦ » .

(٢) « منقذ من ٤٥ » .

(٣) « منقذ من ٤٥ » .

(٤) « منقذ من ٤٦ » .

فلم أرض لنفسى : أن تظن بى غفلة عن أصل حجبتهم ، فلذلك أوردتها ،
ولأن يظن بى أنى لم أفهمها ، ولذلك قررتها (١) .

٦٢ - المقدمة والنتيجة

وأخيراً يأخذ الغزالى هنا - فى المنقذ - فى مناقشتهم قاصراً ذلك على
فكرة الإمام للمعصوم مبيناً ، أنه رد عليهم فى كتب منها :

للمستظهرى (فضائح الباطنية) ، وحجة الحق ، ومفصل الخلاف ، والدرج
المرقوم بالجداول ، والقسطاس (٢) .

وينتهى الغزالى إلى هذه النتيجة ، التى يرددها دائماً فى نهاية كل بحث له ،
وهى : أن هؤلاء ، ليس معهم شيء من الشفاء ، المنجى من ظلمات الآراء (٣) .
فالحق الذى يبحث عنه ، ليس فى إمامهم .

واليقين الذى يرجوه ، لا يوجد فى معصومهم .

٦٣ - السبب الحقيقى فى دراسته ومجاردته التعليمية

وكم رأيت يدلى الغزالى فى المنقذ بسببين لوضعه دراسة التعليمية ، ضمن
الجولة الدراسية ، التى قام بها لبحث عن الحقيقة ، فأصبحت هى للرحلة الثالثة
فى هذه الجولة ، وهما : -

١ - إنه عن له أن يبحث عن مقالاتهم ، ليطلع على ما فى كتبهم ، فهو
لديه باعث « باطنى نفسى » .

(١) « منقذ من ٤٥ ، ٤٦ » .

(٢) « منقذ من ٥٤ » .

(٣) « منقذ من ٥٥ » .

٢ - وإنه « اتفق أن ورد عليه أمر جازم من الخلافة ، بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهبهم ، لم يسمعه مدافعته ، فأضحى عنده « باعث خارجي » .

فهل نصدق السببين معا ؟؟ أو أحدهما ؟؟

وإذا كان فاهو ؟

٦٤ - مفرمة فضائح الباطنية

هذا ما أخذ بيديك لتلمسه الآن ، عندما تقرأ أول كتاب ألفه في الرد عليهم ، وهو فضائح الباطنية - للمستظهرى - الذى سماه باسم الخليفة للمستظهر بالله ، وكان دعاية له وللخلافة السنية ، دعاية حارة قوية ، لم نعهدها اليوم فى تأييد للذاهب السياسية ، وتفنيد الآراء المعارضة !

وسأنتقل إليك مقدمته بنصها وفصها ، لتشتم منها بل لتلمس السبب الحقيقى ، الذى دفعه للجلاد وللنضال ضد التعليمية ، بل الوحيد الذى لم يذكر سواه ، لأنه هو الحق والواقع الذى لا ريب فيه .

٦٥ - تسونى الفزائى لمفرمة الله ظهر بالله بتصنيف كتاب فى علم الدين

يقول : « مجيبا على هذه العناوين »

« أما بعد » (١)

« فإني لم أزل مدة المقام ، بمدينة السلام ، متشوقاً إلى أن أخدم للمواقف للقدسة النبوية ، الأمامية للمستظهرية ، ضاعف الله جلالها ، ومد على طبقات الخلق ظلالها ، بتصنيف فى علم الدين »

(١) من ٢١ من فضائح الباطنية السابق الذكر طبعة لبيد سنة ١٩١٦

٦٦ - الأجر الربوى الذى يطمع فيه الفزائى

« أفضى به شكر النعمة ، وأقيم به رسم الخدمة ، فأجتنى بما أتعاطاه من الكلفة ، ثمار القربة والزلفى » .

٦٧ - نجر الفزائى فى اختيار العلم الذى يبرده الخليفة

« ولكنى احتجت إلى التوانى ، لتخصيص الفن الذى يقع موقع الرضا ، من رأى النبوى الشريف ، فكانت هذه الحيرة تغير فى وجه المراد ، وتمنع القرينة من الإذعان والانقياد » .

٦٨ - أمر الخليفة للفزائى بتصنيف كتاب فى الرد على الباطنية

« حتى خرجت الأوامر الشريفة ، المقدسة النبوية للمستظهرية ، بالإشارة إلى الخادم بتصنيف كتاب فى الرد على الباطنية » .

٦٩ - المستظهر بالله بمحمد التناج وعلى الفزائى صباكة المقدمات !!

« على أن يشتمل الرد :

الكشف عن بدهتهم وضلالهم ، وقوة مكرهم واحتياهم ، ووجه استدراجهم هوام الخلق وجهالم ، وإيضاح غوائلهم فى تلبيسهم وخداهم ، وانسلاهم من بوقة الإسلام وانسلاهم وانخلاهم ، وإبراز فضائهم وقبائحهم » .

٧٠ - مروج الفزائى من عبرته بعثوره على ضلته

« فكانت المفاتيح بالاستخدام فى هذا العلم ، فى الظاهر نعمة أجابت قبل الدعاء ، ولبت قبل النداء « أجابتنى ولبتنى »

وإن كانت فى الحقيقة ضالة كنت أنشدتها ، ونعمة كنت أتصددها . فرأيت الامثال حتما ، والمسارة إلى الارتسام حزما .

٧١ - طاعة أولى الأمر

« وكيف لا أسارع إليه ؟ : وإن لاحظت جانب الأمر ، ألفيته أمراً مبلغة زعيم الأمة شرف الدين ، ومنشئه ملاذ الأمم أمير المؤمنين ، وموجب طاعته خالق الخلق رب العالمين ، إذ قال تعالى :
« وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم »

٧٢ - والذب عن الدين ثانياً

« وإن التفت إلى المأمور به ، فهو ذب عن الحق المبين ، ونضال دون حجة الدين ، وقطع لدابر الملحدين » .

٧٣ - والجري وراء الشهرة والشرف ثالثاً

« وإن رجعت إلى نفسي ، فقد شرفت بالخطاب به من بين سائر العالمين » .

٧٤ - السر واللباب من هذا النضال

لا زال الغزالي يتحدث قائلاً :

« وأخيراً نختم هذا الكتاب ، بما هو السر واللباب ، وهو إقامة البراهين الشرعية ، على صحة الإمامة للمواقف القدسية ، النبوية المستظهرية ، بموجب الأدلة العقلية والفقهية » .

٧٥ - المعاني واضحة والفصول أوضح

بعد ذلك أدعك تلمس وتحكم :

هل بحث الغزالي في التعليمية ، كما أراد أن يوهن في اعترافاته ؟
ليعثر على الحقيقة ، ضالته المنشودة ، فيعتمد اليقين .
فهو في هذا يبحث عن الحق ، مصارع للباطل .

أو لأنه دعى إلى الكتابة فكتب ، وإلى الجلال فجلاد ، وإلى الدفاع عن غنائج ، فحاك المقدمات .

٧٦ - هل يمكن أنه تخفى الحقيقة في اعترافات الغزالي ؟

إذاً هل يمكن أن تخفى الحقيقة في اعترافات الغزالي ؟

نلاحظ كما سبق أن الغزالي قال في المتن :

(١) إن الإمام أمره : « بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهب التعليمية »

أى مناقشة آرائهم ، وبيان مذهبهم ، وهل هو خطأ أو صواب ؟ كما تنطق بذلك هذه الجملة .

ومن الطبيعي أن يكون مقصود الخليفة ، هو الرد عليهم ، وتسفيه آرائهم « وإن لم تساعدنا ألفاظه » لأن من البدهي ، أن الإمام يريد كتاباً ، به تثبت خلافته الدينية والزمنية ، ولا يمكن هذا إلا بهدم آراء الباطنية .

(ب) ولكننا رأينا سابقاً وعراحة ، مقال الغزالي في مقدمة فضائح الباطنية ، من أنه : « أمر بتصنيف كتاب في الرد على الباطنية » بل وحدد له الخليفة للموضوعات ، التي سيعمل على إثباتها ونفيها .

الأمر واحد !!

والواقعة واحدة !!

وللمحدث واحد !!

ولكن رواية الألفاظ ، ومعانيها ، ومقاصدها ، مختلفة تمام المخالفة ، ومتباينة

كل للبيان !!

أما أي الأمرين يجب أن نصدق ؟

هل الأمر الأول، وهو أنه : «أمر بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهبهم» ؟
فيتناسب مع رأيه للفهوم في المنقذ ، ومن أنه درس التعليمية لبحث فيها عن
الحق ، وليعثر على الحقيقة .

أو الأمر الثاني : وهو أنه : «أمر بتصنيف كتاب في الرد على الباطنية» ؟
فيتناسب مع تصريحه في مقدمة كتابه المستظهرى ، وأمر الخليفة نفسه .

٧٧ -- نرجع في غير امتياز

نعم إنى أعتقد أن قوله الثانى ؛ هو القريب إلى الحق ، وذلك لأسباب أهمها :
أولا - لقرب هذا التصريح من الحادثة زمنيا ، فهو له ذاكر ومتيقن .
ثانيا - لإدماجه في المقدمة التى سيطع عليها الخليفة ، فى الكتاب الذى
سمى باسمه ، مما يدل على أنه مطابق تمام المطابقة للأمر الصادر منه .
ثالثا - مطابقتها وملاءمته ، وانسجامه مع الظروف التى حكاه فى المقدمة
كما رأيت .

رابعا - تحديد الأمر المستظهرى ، للموضوعات التى يجب أن يتناولها
الغزالي ، والتى تؤكد لنا أنه أراد الرد والتسفيه والمناقضة ، لا كشف وجه الحق
والصواب ، أيما اتفق ؛ شأن الباحث الحر ، والمفكر الطليق .

٧٨ -- أسوأك لا ورود فيها

بعد هذا ألا يمكننا أن نقول :

١ - إن الغزالي قال الحقيقة هناك - فى المستظهرى - « ولم يمكنه
اخفاؤها بتاتا هنا - فى المنقذ - حيث أشار إليها من طرف خفى » ، لأنه يريد

أن يظهر الواقع ، فيروى الصدق ، ويزداد للخليفة قرباً بإظهار طاعته ،
وسرعة تلييته .

ويريد أن يرى العامة ؛ أنه الرجل الوحيد ، الذى لجأ إليه الخليفة ، ليقى
سلطانه كيد الكائدين ، وليثبت دعائم السنين .

ب - وأن نقول أيضا : إنه أخفى الحقيقة (بقدر المستطاع) هنا - فى
المنقذ - لأنه لا يريد أن يظهر بمظهر الباحث عن الحق ، والجارى وراء الحقيقة .
فيقتنعنا بأن الحق رائده أينما كان ، والحقيقة مطلبة أينما وجدت ، سيما أنه
الآن يؤرخ حياته الفكرية ، ليخلدها بين المفكرين ، ويدافع عن نفسه العلمية
« التى شرفت » بالخطاب من بين سائر العالمين (١) .

إذاً فليتناحدث عن نفسه ؛ هنا وفى المنقذ ، لا كما كان ؛ ولكن كما كان
يجب أن يكون !

بعد هذا نعيد السؤال السابق وهو :

هل يمكن أن يخفى الغزالي الحقيقة ؟

ونحن متأكدون من أنك ستجيب عليه بعد الذى تقدم .

٧٩ - هل اغتفاء الحقيقة فى اعترافات الغزالي كان قصدا ؟

ولكن هل اغتفاء الحقيقة فى اعترافات الغزالي كان قصدا ؟؟

وهل هذا الاختفاء إذاً ؛ يقدح فى الأمانة العلمية للغزالي ؟؟

وهذا ما سنتحدث الآن فيه .

(١) « مقدمة فضائح الباطنية ص ٢١ »

نعم ، إننا لمسننا سابقا ، أن الحقيقة اختفت في اعترافات الغزالي ، ما في ذلك شك .

ولكن لماذا لا يكون اختفاؤها مظهراً لأحد أمرين :

أولاً - ذات قلده ، فلم تواته الألفاظ التي أرادها . لتعبر عن الحقيقة ، أي أنه أراد معنى ، وأرادت الألفاظ سواء... إلى غير ذلك من الاعتبارات اللفظية واللغوية .

وهذا طبعاً ما نجعل عنه أصغر قارئ للعربية ؛ بل أقل كاتب ، فضلاً عن الغزالي ، صاحب الأسلوب الفحل ، واللفظ الذي لا يضارع ، فهو يضحى باللفظ ، ولا يضحى بالمعنى بأي حال من الأحوال ، لأنه هو القائل عندما طلبت منه العناية بالفاظه وتراكيبه :

« إنني أقصد المعاني وتحقيقتها ، دون الألفاظ وتلفيقها » .

ثانياً - أو أنه نسي الحقيقة ذاتها ، فكاتب ما كتب في المنقذ معتقداً أنه الصدق .

ولكن هنا في المنقذ « وفي المنقذ لا غير » شواهد وشواهد ، تدل على أنه ذاكر للحق ، متيقظ للواقع ، ومن ذلك :

ذكره أولاً - أنه درس وكتب عن التعليمية ، كأحد المذاهب التي بحث فيها ، وله يعثر بين طياتها على الحق ، أي أنه يريد أن يؤكد ، أنه لم يبعثها ويسفها بمدافع من السلطان ، بل بمدافع من نفسه ، ليعثر على الحقيقة .

ذكره ثانياً - أنه عن له أن يبحث في مقالاتهم ، أي أنه

يريد أيضاً ، أن يؤكد لنا ، أنه لم يؤمر بذلك ، بل عن له ذلك من نفسه .

ذكره ثالثاً - أنه اتفق أن صدر إليه أمر جازم ، فلم يسمه مدافعة . أي أنه إذا : ذاكر للذي وقع ، متيقظ للذي حدث ، وهو أنه أمر بذلك ، ولما وجد أنه لا يمكنه إخفاؤه تماماً ، أراد أن يفهمنا أنه كان لديه باعث داخلي ، وافق باعنا خارجياً ، وهاتف نفسه ، اتفق مصادفة ؛ مع أمر سلطاني .

وأخيراً - اختياره لفظاً ذا وجهين ؛ وهو « أنه أمر بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهبهم » . وذلك حتى يتلاءم مع ما أراد أن يفهمنا إياه ، من أنه درسها كباحث عن الحق ، ومكتنق من الحقيقة ؛ وحتى يتلاءم أيضاً مع الحق والواقع ، الذي لا يمكنه إخفاؤه ، وهو أنه درسها ؛ لأمر جازم من السلطان . لم يمكنه مدافعة .

ومن الغريب أننا في تلك المقدمة « مقدمة المستظهرى » ؛ نلمس صراحة قوية في التعبير عن غرضه المقصود ، وهو المعنى الثاني ، وعن الباعث الخارجى ، لمسا مادياً !! بحيث لا يمكن أن يتلاءم معه بتاتا الباعث النفسى ؛ بأي تأويل أو تخريج ، وعلى أية صورة من الصور ، أو أية حالة من الحالات .

بعد هذا ، نعيد السؤالين ، ونحن واثقون من أنك ستجيب عليهما ، بدون عناء أو تعسف ، وهما :

هل اختفاء الحقيقة في اعترافات الغزالي كان قصداً ؟

وهل هذا الاختفاء إذا كان قصداً ، يقدح في الأمانة العلمية للغزالي ؟

الباب السادس

١ - اعترافات الغزالي الصوفية كما سطرها بنفسه

أو

لماذا اعتزل نشر العلم والناس ببغداد وعاد إلى ذلك بنيسابور؟

بعد أن خبر الغزالي حال التعليمية، نفى اليد عنهم، لأنه لم يثر على يقينه في وادهم (١) . . ولهذا يقول بعد ذلك :

« أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وقد علمت أن معرفة طريقهم، لا تتم إلا بعلم وعمل (٢) » .

٨٠ - كيف درس الغزالي علم الصوفية ومصدره؟

أما تحصيل العلم : فكان أيسر عليه من العمل ، إذ بدأ بتحصيله من مطالعة كتبهم . مثل قوت القلوب للمكي . ومثل كتب الخاسبي ، والجنيدى والشبلى ، والبسطامى ، وغيرهم (٣) .

فاطلع على كنه مقاصد العلمية ، وحصل ما يمكن أن يحصله . عن طريق التعلم والسماع (٤) .

(١) « منقذ ص ٥٧ »

(٢) « منقذ ص ٥٨ »

(٣) « منقذ ص ٥٩ »

(٤) « منقذ ص ٦٠ »

٨١ - لم اضطر أنه ينخرط في سلكهم عمليا؟

أما العمل فقد ظهر له :

أولا - « أن أخص خواصهم ، لا يمكن الوصول إليه إلا بالذوق ، والحال وتبدل الصفات ، فهم يقينا أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال » (١) .
وظهر له ثانيا أيضا -

« أن لا مطمع له في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى (٢) » .

وظهر له ثالثا يقينا :

« أن ذلك كله لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والحرب من الشواغل ، والعلائق (٣) » .

٨٢ - ملاحظة الغزالي حاله وأعماله ونيته

وبعد أن تأكد الغزالي مما تقدم أخذ - على ضوء الشروط السابقة - في ملاحظة :

أحواله : « فوجد نفسه وقد انغمس في العلائق ، بل وأحدث به من كل جانب (٤) » .

أما أعماله : « وأحسنها التدريس والتعليم ، فوجد نفسه ، قد أقبل على تدريس وتعليم علوم غير مهمة ، وغير نافعة في طريق الآخرة (٥) » .

(١) « منقذ ص ٦٠ ، ٦١ »

(٢) « منقذ ص ٦٢ »

(٣) « منقذ ص ٦٣ »

(٤) « منقذ ص ٦٢ »

(٥) « منقذ ص ٦٢ ، ٦٣ »

أما نيته في التدريس « فوجدها غير خالصة لوجه الله ، بل باعنها
ومحررها طلب الجاه ، وانتشار الصيت (١) » .

٨٣ - - الغزالي علي شفا جرف هار !

وهنا يتيقن : « أنه على شفا جرف هار ، قد أشقى على النار ، إن لم يسرع
ويشتغل بتلافي هذه الأسباب ، والأحوال (٢) » .

٨٤ - - إمبراد في التفكير ومبرة في التنفيذ !!

أخذ الغزالي بعد هذا « في التفكير مدة من الزمان ، تفكير المختار
لا تفكير المضطر (٣) » وهنا يقول :

« أصمم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال ، أقدم رجلاً وأؤخر
أخرى ، لا تصفو لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا وتحمل عليها جند الشهوة
حمة فتفتتها عشة (٤) » .

وصارت شهوات الدنيا ، تجاذبني سلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان
ينادى : الرحيل الرحيل !! فلم يبق من العمر إلا القليل !! وبين يديك السفر
الطويل !! وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخيل (٥) !!

فإن لم تستعد الآن للآخرة أفنى تستعد ؟؟

وإن لم تقطع الآن أفنى تقطع ؟؟

وأخيراً ينبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار (٦) !!

٨٥ - - هوامس الشيطان ، وأماني النفس ، وخوف العاقبة

ولكن الشيطان يعاوده ويقول :

« هذه حالة عارضة ، وحذار من مطاوعتها ، فهي سريعة الزوال ، وإن
أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن للنظوم ، الخالي عن التكدير
والتنغيص ، والأمر للمسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما ألقت إليه نفسك
ولا تنيسر لك المعاودة (١) » .

٨٦ - - الحيرة تبلغ منراها ، فتورث عفة في اللسان ، وحرنا في القلب

ولكن الغزالي لا يزال تتلقفه شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، ما يقرب
من سنة أشهر ، أولها رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .
وهنا يقول :

« وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطراب ، فعقل الله
لساني ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً
واحداً ، تطيبها للقلوب المختلفة إلى ، ولكن لساني كان لا ينطق بكلمة ،
ولا أستطيعها البتة (٢) » .

وزاد الأمر ، أن أورثت هذه العقلة في اللسان ، حزناً في القلب ، بطل
مع قوة الهضم ، وقرم (٣) الطعام والشراب ، فكان لا تنسأغ على شربة ، ولا تنهضم
لي لقمة ، انضغفت القوى ، وقطع الأطباء طعمهم في العلاج ، وقالوا :
هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ،
إلا بأن يتروح السر عن الهم للم (٤) » .

وهنا يقول :

« ثم لما أحسست عجزى ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله تعالى التجاء للمضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب للمضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه ، وللمال ، والأهل ، والولد والأصحاب (١) » .

٨٨ - الغزالي بين الحقيقة والرياء

لا زال الغزالي يتابع قائلًا :

« وهنا أظهرت عزمي على الخروج إلى مكة ، وأنا أدرى في نفسي سفر الشام حذر أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمي في اللقاع بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعودها أبداً (٢) » .

٨٩ - عمر هريف للتجريح من الزمعة والعمارة

يقول :

« واستهدفت لكلام أئمة أهل العراق كافة ، فلم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، لأنهم ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، ولكن كان ذلك مبلغهم من العلم (٣) » .

« وأما عامة الناس : فقد ارتبكوا في الاستنباطات فن بُعد عن العراق ؛ ظن أن ذلك لشعور بالوحشة من جهة الولاية (٤) » .

« وأما من قرب منهم : فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي ، والانكباب علي ، وإعراضهم عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فلا يسمعه إلا أن يقول :

« هذا أمر محموى ؛ وليس له سبب ؛ إلا عين أصابت أهل الإسلام ، حوزمة العلم (١) » .

٩٠ - فراو بغداد ونفريه المال

يقول الغزالي :

« ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدر الأقدار الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصود للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين ، ولهذا لم أر في العالم مالا يأخذه العالم لمياله ، أصالح منه (٢) » .

٩١ - دمشق الشام موطن العزلة والخلاوة

« ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين ، لا شغل لي إلا العزلة ، والخلاوة ، والرياضة ، والمجاهدة ، اشتغلاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة للمسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

وأخيراً دخلت بيت المقدس ؛ فكنت أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي (٣) » .

٩٢ - فلتسر الفافز إلى الحجاز على بركة الله

« ولكن تحركت في نفسي داعية فريضة الحج ، والاستعداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله محمد ، بمد الفراغ من زيارة خليل الله إبراهيم ؛ خسرت إلى الحجاز (٤) » .

يقول هو نفسه :

« ولكن جذبتني المهم ؛ ودعوات الأطفال إلى الوطن : فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ؛ فأثرت العزلة أيضا ، حرصا على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر » .

« غير أن حوادث الزمان ، ومهيات العيال ، وضرورات للعاش ، كانت تغير في وجه المراد ، وتشوش صفو الخلوة ، وكان لا يصفو الحال لي إلا في أوقات متفرقة » .

لكني مع ذلك ظلت لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني العوائق عنها ، ولا ألبث إلا أن أعود إليها .

ودمت على ذلك عشر سنوات (١) .

٩٤ - أمور لا يمكن إحصاؤها ولا استقصاؤها

وفي أثناء هذه الخلوات ، انكشفت لي أمور ، لا يمكن إحصاؤها ، ولا استقصاؤها ، ولكن القدر الذي أذكره لينتفع به .

٩٥ - الصوفية ومشقة النبوة

اني علمت يقيناً . أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ،

لم يجدوا إليه سبيلا ، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهريهم وباطنيهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض ، نور يستضاء به (١) .

٩٦ - الشروط الواجب توافرها في سالك طريق الصوفية

يقول :

وبالجملة فإذا يقول القائلون في طريقة :

طهارتها - وذلك أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها - وذلك جار منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله

وآخرها - الفناء كلية ، في الله (٢) .

٩٧ - ماذا رأى الغزالي وماذا انتهى إليه ؟

يقول :

ومن أول الطريقة تبديء للكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون للملائكة وأرواح الأنبياء ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق المنطق ، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا ويشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه (٣) وعلى الجملة : ينتهي الأمر إلى قرب تكاد تتمثله طائفة « الحلول » ،

وطائفة « الاتحاد » ، وطائفة « الوصول » ، وكل ذلك خطأ ، لأن من لا يسته
تلك الحالة ، لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :
وكان ما كان مما است أذكره

فمن خيرا ولا تسأل عن الخبر (١)

٩٨ — ماذا فهمم بالذوق ؟

ومن لم يرزق من هذه الطريقة شيئا بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة
إلا الاسم ، وكرامات الأولياء على التحقيق ، بدايات الأنبياء .
وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أقبل إلى جبل
حراء . وحين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمداً عشق
ربه » (٢) .

٩٩ — درجات المعرفة

(أ) فتحقيق هذه الأحوال بالبرهان هو : العلم
(ب) وملاسة عين تلك الحالة هي : الذوق
(ج) والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن هو : الإيمان
ووراء غير المتصفين بهذه الدرجات السالفة ، قوم جهال يسخرون ويقولون :
تعجبوا وانظروا كيف يهذون ١٤ . (٣)

١٠٠ — الدوافع التي دفعته للخروج من عزلته

أما وقد بان للغزالي مرة بالذوق ، وأخرى بالعلم البرهاني ، وثالثة
بالقبول الإيماني :

أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأن للبدن أدوية لا يدركها العقلاء
جيفساعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء .

وكما أن أدوية البدن تتركب من عناصر مختلفة النوع والمقدار ، فكذلك
أدوية القلب ، قد تتركب من عبادات مختلفة النوع والمقدار كذلك ، فترى
السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار .
ولا يعرف سر هذا ، إلا النبي طيب القلب ، كما لا يعرف سر ذلك ، إلا
الطبيب مداوى البدن (١) .

أما وقد رأى الغزالي — على ضوء النظرية السابقة — فتور الخلق
وضعف إيمانهم .

فمنهم من خاض في علم الفلسفة ، أو عرف شيئاً من التصوف ، أو انتسب
إلى التعليميين ، أو وسم بالعلم بين الناس أجمعين (٢) .

« أما وقد رأى الغزالي ، أن كل هؤلاء يوردون شياً ، وأن همت حلقاتها ،
وظنوننا ، وإن تخاذلت وتهاوتت أجزاءؤها ، تدعو إلى طرح الدين ، ومجانبة
مادعا إليه الرسول الأمين » .

يقول الغزالي :

« أما وقد رأيت أن نفسى ملبة (٣) ، بكشف هذه الشبهة ، لدرجة أن إفضاع
هؤلاء ، أيسر عندي من شربة ماء ، وذلك لكثرة خوضي في علومهم ، صوفية ،
أو فلسفية أو تعليمية ، أو موسومين بسمه العلم والمعرفة » (٤) .

(١) « متقدم ٨٢ » (٢) « متقدم ٨٢ و ٨٥ » (٣) « ملية بالرغبة »
(٤) « متقدم ٨٧ »

(١) « متقدم ٧٠ » (٢) « متقدم ٧١ » (٣) « متقدم ٧٢ »

١٠١ - إمبرهاد في التفكير ومهيرة في التنفيذ

أما وقد رأيت كل ذلك ، فقد اقدح في نفسي ، أن فضح هؤلاء ، متمين في هذا الوقت محتوم .

فماذا تغنيني الخلوة والعزلة ؟ وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك (١) .

١٠٢ - وساوس النفس ودواعي الهوى والطمع

فقلت في نفسي :

« ومتى تستقل أنت بكشف هذه الغمة ، ومصادمة هذه الظلمة ؟ والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأني تقاومهم ؛ فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ؛ وسلطان متدين قاهر !

فترخصت بيني وبين الله تعالى ، بالاستمرار على العزلة ، تمللا بالمعجز عن إظهار الحق بالحجة (٢) .

١٠٣ - السلطان يرعو الغزالي للترريس بنيسابور

« ولكن الله قدر أن حرك داهية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحرك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالهوض إلى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً ؛ كان ينتهي لو أصررت على الخلاف ، إلى حد الوحشة . .
وهنا يقول : « إن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعذك

على ملازمة العزلة ، والسكسل ، طلب عز النفس ، وصونها عن أذى الخلق . فلم ترخص نفسك بعسر مقاساة الخلق ؟ والله تعالى يقول :

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين (١) » .

١٠٤ - كل ما مول الغزالي يرعو إلى ترك العزلة

يقول :

« ولهذا شاورت في ذلك ، جماعة من أرباب القلوب والمجاهدين ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف لذلك ، منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله سبحانه وتعالى على رأس هذه المائة ، وقد وعد بإحياء دينه على رأس كل مائة (٢) » .

١٠٥ - النهوض إلى نيسابور

« فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم ، في ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (٣) » .

١٠٦ - بين الماضي والحاضر

يقول

« وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة ، وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهي من عجائب مقدراته ، فلم تنقدح في قلبي العزلة ، كما لم يكن الخروج من

(١) « منقذ من ٨٨ »

(٢) « منقذ من ٨٨ »

(١) « منقذ من ٨٩ » (٢) « منقذ من ٨٩ » (٣) « منقذ من ٩٠ »

بغداد ، والنزوع عن تلك الأحوال ، مما يخطر إساكنه بالبال أصلاً ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال ، وقلب للؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن (١) .

١٠٧ — تدريس وتدريس

« وأنا أعلم : أتى وإن رجعت إلى نشر العلم ؛ فارجعت ، فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي يكذب به الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعمل ، وكان ذلك قصدي ونيي .
وأما الآن فأنا أدعو إلى العلم ، الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبته .

هذا هو الآن نيتي ، وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني ، (٢) .

١٠٨ — غرضه من الخروج من بغداد

« وأنا أبني أن أصلح نفسي ، وغيري ، ولست أدري أصل إلى مرادى أم اخترت دون غرضي ؟

ولكني أؤمن بإيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأتقن لم أتحرك ، ولكنه حركني ، وأتقن لم أعمل ، ولكنه استعملني ، فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ، وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه ، إنه سميع مجيب (٣) » .

١٠٩ — قصة ١١

نعم ، هذه هي قصة الغزالي الصوفية ، والتي ترى فيها سبب تركه التدريس ببغداد ، وعزلته التي دامت عشر سنوات أو تزيد ، وترى فيها أيضاً ، سبب انتماره في بحر الصوفية المتلاطم الأمواج ، تحت ضغط نوبة نفسية ، وحيرة قلبية ، ثم سبب رجوعه إلى نشر العلم ببنيسابور .

نعم هذه هي قصته ، قصصناها كما رواها لسانه وقلبه .

وهنا نحن نبدأ قصتها من جديد ، كما رواها المنطق والحق والواقع ؟ بل كما خطها هو نفسه ، في سجل التاريخ الخالد .

(٢) « مقصد من ٩١ »

(١) « مقصد من ٩٠ »

(٣) « مقصد من ٩٠ »

يشكوه شافيا، لأن رجاله اعتمدوا على التقليد، وإجماع الأمة، ومجرد القبول
لآي القرآن، وأخبار محمد عليه السلام (١).

١١٣ — لماذا درس بنظامية بغداد؟

وأنه عندما ظفر بكرسى في مدرسة بغداد، أو بممود في النظامية، سنة
١٨٤٤ هـ، وكانت سنة حينئذ أربعاً وثلاثين سنة، وهي سن الدأب والنشاط
والإنتاج، وكذلك سن الأمل العريض، والرجاء الفسيح.

أقول: إنه عندما ظفر بهذا الكرسي، بعد أن جاهد في الحصول عليه،
وبعد أن ظل يختار بسببه إلى نظام الملك في العسكر، ست سنوات
كاملات (٢).

نعم؛ أقول: إن الغزالي عندما تربع على هذا الكرسي، وجد أن هناك
أساتذة كثيرين أمثاله.

ولكنه لا يرضى إلا بأن يكون أستاذاً الأول، وفريد عصره، وليس
وحده، فبماذا؟

١١٤ — لماذا ناقشه الفلاسفة؟

بالرد على الفلاسفة: لأن المتكلمين الذين ناقشهم، إنهم اردوا عليهم
بكلمات معقدة، ظاهرة التناقض والفساد (٣).

إذاً ليدرس الفلسفة، ويناقش الفلاسفة ويؤلف مقاصده وتمافته.

(١) « منقذ ص ١٩ ».

(٢) نعم فـكرسى النظامية — وياله من كرسى !! — كان يسيل له لعاب العلماء الأجلاء،
بل كان بسببه ينير العلماء مذاهبهم، فما هو ذا ابن الدهان، يقلب مذهبه إلى شافى، بعد
أن كان حنفياً. (٣) « منقذ ص ٢١ ».

ب — كشف النقاب عما فات، وتصويب لما هو آت

ولكن: هل يمكنك أيها الباحث، أن تلخص ما كتبت، وتصوب
تحو الهدف الذى تريد، وتعطينا نتائج فى سطور ؟
نعم؛ أريد أن أجعلك تلس:

١١٠ — لماذا كتب الغزالي المنقذ؟

إن الغزالي كتب تاريخ حياته فى المنقذ، ليدافع عن نفسه، وليفهم الناس
جميعاً أسباب تناقضه فى آرائه وطفراته؛ والدواعى إلى عزله وخلواته،
وأخيراً السبب فى الرجوع إلى التدريس وخصوماته، فيدعو لطريقه الذى
سلكه، ولرأيه الذى اعتنقه، وينزههما من كل خطئ، ويرثيها من أى زيغ
أو خطأ، وليجعلك تؤمن أخيراً.

بأن نفسه قد اتصلت بالله، وأن رأيه قد استمد من نور النبوة، وليس
على وجه الأرض بعد نور مشكاة النبوة، نور يستضاء به.

١١١ — لماذا تكلم عن نظريتي الشك واليقين؟

وأن الغزالي أيضاً؛ قدم بين يدي كتابه المنقذ: نظريتي الشك واليقين،
ففرض أنه شك؛ ليدل على أنه بحث بفكرٍ طليق. وفرض أنه رجل اليقين؛
ليدل على أن الله خصه بقبس من عنده، ملأ صدره، وأثار قلبه.

١١٢ — لماذا رفض تعلم الكلام؟

وأنه فرض أيضاً. أن علم الكلام لم يكن فى حقه كافياً، ولا لدائه الذى

ولكن الفلسفة مركبة لا يدنى من الشهرة ، إذ هي ميدان الخلاصة من العلماء ، وقليل مام .

أما العامة ؛ أما جمهور الشعب ؛ فلا يهتم بها ولا يفهمها .
أما السلطان ؛ فهو يريد ما يدعم به ملكه ، ويكبت به أعداءه .

١١٥ — لماذا ناقض التعليمية ؟

نعم ؛ إن الغزالي يظفر بأمنيته (١) هندياً يطلب منه المستظهر بالله ؛ نقاش التعليمية ، ونضال الباطنية ، فينشر كتباً ، ويبسط تواليف (٢) .

١١٦ — لماذا انحرف في سلك الصوفية ؟

ولكن الغزالي مع هذا لازال أملاً عظيماً ، وتوقانه إلى انتشار الاسم ، وذبوع الصيت أطول وأعرض ، فما هو الطريق ؟
نعم ؛ وكما قلت سابقاً :

لأفرض أنني الغزالي ، فأحيط نفسي بظروفه ، وعوامل بيئته ، فإذا أرى ؟
أو ماذا يرى هو ؟

يرى الجمهور الإسلامي في ذلك الوقت ، كما هو في كل زمان ومكان ، لا يحترم إلا المتصوف ؛ صاحب الكرامات ، وإن هو في زمرة الأولياء ؛ والمقربين إلى الله .

يرى أيضاً ؛ أن هؤلاء الأشخاص ، فضلاً عن أنهم المسيطرون على العامة ، فهم مقربون من الخاصة ، لأن الخاصة يرون في تقريبهم إليهم ، تحبباً للعامة ، وتزلفاً للشعب .

(١) « أمنية إرضاء السلطان » (٢) « مقدمة فضائح الباطنية السابق الذكر »

يرى الغزالي ذلك كله ، بل يراه رأى العين ، عندما يختلف إلى نظام الملك ، فيرى أنه ما كان يحترم إلا أدعياء العلم ، وقراء الصوفية ، فيقوم إليهم عند دخولهم عليه ، احتراماً لهم ، ويقربهم من مجلسه ، ويدنيه من مرتبته ، ولما سئل عن ذلك قال :

« إن هؤلاء إذا قربتهم مني ، أثنوا عليّ ، بما ليس فيّ . »

يرى ويعرف الغزالي أيضاً ؛ أنه ألف في الشريعة فكتب الوجيز ، والوسيط ، والمبسوط .

وكتب في الأصول ، وعلم علم الكلام ، ودرّس في النظامية ، وناقش الفلاسفة وهدمهم ، وناقض التعليمية

ولكن كل هذا قليل ، إذا قيس بهذا القلب الكبير ، كل هذا ضئيل ؛ بجانب هذا الأمل العريض ، والشهرة العلمية المبتغاة .
بل ، يعرف الغزالي أكثر من هذا !

١١٧ — الغزالي رجل القوة والبطون

يعرف أنه فعل ما تقدم ، لاحقاً في العلم ، ولا طمعاً في مرضاة الله ، وإنما فعل أحسن أعماله وهو التدريس ، « قصداً لطلب الجاه ، ورغبة في انتشار الصيت (١) » .

هذا قوله الفصل ، وذلك اعترافه الصريح .

الله ، الله ، أيها الشيخ ، إنك لرجل قوى وبطل ، نعم قوى ، لأنك احتملت ما لم يحتمله الناس ، فأظهرت للتاريخ نفسك سافرة عن حقيقتها ، وما همك أن .

(١) « مقدس ٦٣ »

يحكم لك أو عليك ، بينما خاف معظم الناس من حكم التاريخ . وهو قاس غير رحيم !! فقالوا بلسانهم ما ليس في قلوبهم !

نعم ؛ وبطل ، لأنك أول من خط هذه الصراحة في سجل الإسلام ، ومن علماء المسلمين . فأبنت للناس ما تنطوى عليه ضلوعك ، وما يختلج في قلبك ، إن شراً وإن خيراً ، كأنك لم تكن بمستول عما تحس وتعترف ، وكأنك لا تملك من أمرك شيئاً ، مؤمناً : أن « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » كما قلت ذلك صراحة في المتنقذ (١) .

نعم إلى هذا التاريخ - تاريخ خروجك من بغداد - وقد كان عمرك حوالي الثامنة والثلاثين من السنين ، وأنا أو من معك إيماناً لا شك فيه ، بأن عملك كله - من أوله إلى آخره - كان للقصود به كما قلت : « هو طلب الجاه ، وذبوع الاسم ، وانتشار الصيت » (٢) .

١١٨ - الغزالي بربير التوفيق بين علم الظاهر وعلم الباطن

نعم ؛ رأى الغزالي ذلك كله ، وعرف أنه لم يسح في الأرض ، لم يكتب إلى الناس ، لم يخلد اسمه بما هو خالد وأبدى ، وإذا كان قد كتب في الشريعة ، وفي الأصول و... فهناك كتب كثيرة تشبه ما كتب .

نعم عرف أنه وفق بين علم الكلام وعلم الفلسفة ، فأحيا الأول على حساب الثانية - كما يعتقد - ولكنه الآن ، يحس ويرى شيئاً جديداً ، يرى ميداناً أوسع .

يرى ، ويعرف ويحس ، أن التصوف - حينئذ - أصبح له نظام خاص ، وتقاليده محدودة ، وجد القشيري قد دونها ، ونشرها على الصوفية في رسالته - القشيرية - فأضحت جماعة لها نفوذ وسلطان ، وبها حركة ، وفيها حياة .

(٢) « متنقذ ص ٦٣ »

(١) « متنقذ ص ٩٠ »

ووجد - قوت القلوب - للمكي ينشر نظريات الصوفية ، ويدافع عنهم ، ويؤسس علمهم ، ويذيعه بين الناس الذين تكاثروا على اعتناقه ، سبب العامة والفقراء ، وهم كل المسلمين في ذلك الوقت .

ووجد أيضاً أن لعلماء الظاهر ، الذين يأخذون بظاهر القرآن ، ومنطوق الحديث ، أحكاماً خاصة في الفتيا ، وفي الفقه ، وفي المعاملات ، يتمثل ذلك في مذهب أهل السنة والأشاعرة ، بعد أن أصبح هذا ، هو المذهب الرسمي للخلافة والدولة ، وبعد أن اشتد ساعده بالمدارس النظامية ، التي أسسها نظام الملك ، والذي تعلم فيها الغزالي ، وعلم في أشهرها .

أتى الغزالي في القرن الخامس الهجري ، فوجد ، وعرف ، وأحس ، ورأى كل هذا ، فتأكد من وجود همل جليل وخطير ينتظره ، ورأى أن ميداناً للنشاط والإنتاج ، وذبوع الاسم ، وانتشار الصيت ، بل والخلود ، ينفصح له .

إذاً . لينتقم الغزالي ، ويحمل العلم ، ويسد النقص ، الذي شعر به علماء الظاهر ، كما سد النقص ، الذي شعر به المتكلمون ، عند ما هدم الفلسفة بأسلوب علم الكلام - كما يعتقد .

إذاً . ليفوق بين مذهب الدولة الأشعرية الرسمي - السنية - وهو علم الظاهر ، وبين ما يدين به العامة ؛ من تقاليد الصوفية ، وهو علم الباطن .

فيؤلف كتاباً ، يجعل فيه للنهج الصوفي سلطاناً أيما سلطان ، ليظفي به ظمأه ، ويستولي به على قلوب العامة ، والناس أجمعين .

ويحاول أن يجعل النهج الشرعي ، لا يتضارب مع النهج الصوفي ، بأى حال من الأحوال ، فلا يفضى الخاصة من العلماء وللفنيين (١) .

١١٩ - الفزالي يقوم بمراسيم الصوفية ليصبح صوفياً

ولكن كيف يكتب في الصوفية ، ويعلى شأنها ، ويحمل علمها ؟ إذا . لا بد له من أن يدرسها ، وقد عرفت أن هذا هو أسلوبه في البحث والتحصيل ، كما حصل له عندما ناقش الفلاسفة ، ورد على الباطنيين !!

إذا . فليتعلم علمهم ، ولهذا نراه « يطالعه حتى يأتى على كنه مقاصدهم العلمية ، ويحصل ما يمكن أن يحصل من طريق التعلم والسماع ، وذلك من كتب المسكى والجنيدى والبسطامى و ... » (٢)

ولكنه يجد أن هذا « ليس بكاف ، لأن من شرط طريقهم الإعراض عن الجاه ، والمال ، والحرب من الشواغل ، والعلائق » (٣) .

إذا . فليهرب نفسه لذلك ، وليقيم بالمراسيم المطلوبة ، حتى يجوز الامتحان كما يجب أن يكون ، وليعزل الناس ، وليهرب من الخليفة ، ومن السنة القوم ، وأخيراً ، ليفر من بغداد ، ويعزل بالشام .

ولكننا نراه وهو في الخلوة بالشام ، يؤدى المراسيم للصوفية ، يسبح في الأرض ، ويندب آراءه ، ويؤلف كتابه الخالد « إحياء علوم الدين » .

ثم يرجع إلى العراق ، وبطوس ، يصبح قطب الغوث ، وتند الأوتاد ،

(١) راجع مقدمة الإحياء ، وباب علم المكاشفة ، وعلم المعاملة فيه .

(٢) (منقذ ص ٦٢)

(٣) (منقذ ص ٦٠)

يحدث بلسان أهل الحقيقة ، ويحتل للمكانة التي أرادها ، ويمتنع مقعد الشهرة ، الذي عمل لأجله سنوات معدودات ، فالعامة تحترمه ، والخاصة تجله .

١٢٠ - الفزالي يتقاضى عن الكثير ليحقق هدفه

ولم لا يكون كذلك ؟

وقد كان رجل الشرع : فهو فيه مدرس ومؤلف .

وكان بطل الفلسفة : فهو هادما ومظهرتهاقتها .

وكان مسفه الباطنيين ، ومبطل آرائهم .

وأضحى اليوم وأخيراً : زعيم الصوفيين ، حيث حصل علمهم ، وقام بخلاوتهم ، فأصبح إلى الله من المقربين ، فرأى أشياء لا يمكن إحصاؤها ، ولا استقصاؤها ، وأضحت جميع حركاته وسكناته ، كحركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرها وباطنها ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة (١) .

أما السلطان : فالغزالي يعيش تحت حمايته ، ولخدمته ، فهو عنه راض ، وله مقرب .

نعم . هو يرى المنكر ، ولا يريد أن ينهى عنه ، يرى حرمة الإسلام نداس ، وهو قادر على فضح من يدوس تلك الحرمات ولا يفعل ، لأنه يريد أن يسالم الناس ولا يعادهم ، حيث يعايشهم ، ولا يمكنه أن يقاومهم (٢) .

فليظل على الاعتزال مادامت الشهرة قد حصلها ، والمكانة التي أرادها قد اقتعدتها ، فالعامة ، والخاصة ، والسلطان ، كل أولاء عنه راضون ، وبشهرته معترفون .

(١) منقذ ص ٦٧ و ٦٨

(٢) منقذ ص ٨٨

وإذا كان الله يناديه ، ليحمي دينه ، ويثبت شرائعه ، « فليترخص وليبق على عزلته ^(١) » .

أما إذا ناداه السلطان ، وأزماه لينهض إلى نيسابور ، ويدرس بنظاميتها ، فلا بد أن يجيب ، حرصاً على مودة السلطان . « وقد بلغ الإلزام من الخليفة حداً كان ينتهى لو أصر على الخلاف إلى حد الوحشة ^(٢) » .

وإذا كان للغزالي قد قبل إغضاب الله ، حيث توخى فيه ، وإذا كان قد عمل على عدم إغضاب العامة ، حيث هو في احتياج إليهم ، فلن يمكنه الترخص في أمر السلطان ، ولهذا ، نراه بعد أن ينفذ أمر الإمام ، بالنهوض إلى نيسابور ، ويقدم الدليل على طاعته بالتدريس زمناً ، يترك التعليم برضاً من السلطان ، حيث اعتلت صحته ، وضعت قواه ، ويرجع إلى طوس ، وقد تخطى الحسين .

وهناك . وبعد قليل ، تصعد روحه إلى الرفيق الأعلى ، هادئة مطمئنة ، سعيدة قريرة .

نعم . فقد وصل إلى كل ما طلب ، وانتهى إلى جميع ما أراد ، تبجيل من الجميع ، وشهرة لا حد لها بين الخافقين ، وخلود تذكيره الأيام قوة ، ويكسبه مر السنين حياة .

١٢١ - لماذا هذا الإفصاح المفعم ؟

لماذا كل هذا الإسفار والإيضاح ؟؟

نعم . كتبت كل هذا : فأسفرت النقاب عما فات ، وصوبت نحو ما هو آت .

لقد أفصلت عن ذلك ، قبل الإتيان على الفصل الأخير من قصة الغزالي ، وهو الفصل الأم ، بل هو فصل الخطاب . لأن حوادث هذا الفصل ، كانت هي السبب المباشر لتأريخه حياته ، ولأنك ستري فيه الفكرة التي حكيتها لك بحسمة ، لا أبس فيها ولا غموض .

نعم حشدت بين يديك ، وقدمت أمام عينيك . كل هذا ، قبل أن أقدم اعترافات الغزالي في هذا الفصل ، فأرجو أن تعبده ياسيدي القارئ - أسمعاً صاغية ، وأذهاناً واعية ، وأحاسيس مرهفة ، حقاً إذا ما أتينا على قصة الغزالي ، فطوبىنا ، ونشرناها :

طوبىنا ، ما أراده هو واحترمناه .

ونشرنا ، ما أراده الحق ، وسجله الواقع ، واتبعناه .

ج - قصة الغزالي الصوفية ، كما هي الحق والواقع

١٢٢ - الغزالي ينسى الهدف الأول

انتهى الغزالي من بحثه عن الحق - الذى جهر دائماً بأنه قام بهذه الدراسة لأجل العثور عليه - عند التعليمية فلم يجد له شيئاً .
وما هو ذا ينتهى إلى الجولة الأخيرة ، فيدخل ميدان الصوفية ، ويهرول فيه بكل همته ، ويعبره ، ولا يشعرنا بأنه باحث عن شيء ، أو عن شيء على شيء ، اللهم ، إلا إذا كان الغزالي كما أنهمنا ضمناً أنه :

قد آمن - قبلاً - إيماناً بأن الحق الذى ينشده ، هو فى طيات طريق الصوفية ، أو طريقهم هو الحق نفسه ، وبني اصطدم به ، وعثر عليه ، آمن به واعتنقه ، لا على أنه مذهب بحث فيه عن الحق ، بل على أنه هو كل الحق ، وكل اليقين .

١٢٣ - هل هدف الغزالي من الخلوة والعزلة سعادة الآخرة ؟

أو الوصول إلى طريق الصوفية ؟

وكما رأيت سابقاً ، عند الكلام عن الأسباب التى اضطرت به إلى الانخراط

فى سلك الصوفية ، يصرح هناك بسببين :

١ - أنه لما كانت طريقة الصوفية ، لا يمكن معرفتها إلا بعلم وعمل :
أما العلم ، فلأن تحصيله من الأسس الأولى لمعرفة حقائق الأشياء ، ولذا فقد حصله من كتبهم . مثل ، ومثل .

أما العمل ، فلأن الصوفيين أرباب أحوال لا أقوال ، ولأنه لا يمكن

الوصول إلى طريقهم ، إلا بالتذوق . والحال . وتبدل الصفات ، فقد اضطرت إلى الخلوة والاعتزال . والاتجاه بالكلية إلى الله : طلباً لذلك .

نعم آمننا بهذه الوسيلة وهى :

« تبدل الصفات ، والانخراط فى غمار الصوفيين ، وملابسة أحوالهم ، والعزلة عن الناس ، والتباعد عنهم » .

وأيضاً آمننا بهذه الغاية وهى :

« الوصول إلى طريقة الصوفية » .

فما العلاقة بين هذا ، وبين السبب الثانى ، الذى أعلنه أيضاً كسبب للخلوة ، وهو :

٢ - أنه قد ظهر يقيناً ، ألا مطمع له فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، والإعراض عن الجاه . والمال ، والولد ، (١) .

أى إلى الخلوة والعزلة أيضاً .

فهل يريد الغزالي الوصول إلى طريقة الصوفية ، كطريقة . من طرق المعرفة واليقين ؟

فيعتزل الناس ، ويتجه إلى الله ليصبح متصوفاً .

أو يريد سعادة الآخرة . فيعتزل الناس ، والأهل ، والمال ، ويتجه إلى الله ، ليصبح زاهداً ؟

وهل أراد الغزالي بتلك العزلة . الهدفين معاً - طريق الصوفية ، وسعادة الآخرة - أو أراد أحدهما ؟

(١) « مقتضى ٦٢ » .

نعم . إن الغزالي في الواقع لا يريد أن يفهمنا بإيضاح ماذا يريد ؟

لا لأنه غير واضح في نفسه ، كما يعتقد كثيرون ١١

لأنني أؤمن بأن الغزالي يفهم ما يريد ، وهو يكتب ويعرف ماذا يكتب ، ومتيقظ إلى الجهة التي تتجه إليها النظرة ، وإلى المسقط الذي تهوى إليه معانيه . ولكنه يكتب كتابه للناس جميعاً ، فليُرد للمعنيين معاً ، حتى يفهم المتصوفة والعامة ، أنه اعتزل طلباً للصوفية ، وحتى يفهم الخاصة ورجال الشرع ، أنه اعتزل طمعاً في سعادة الآخرة ، وزهداً في الحياة الدنيا .

ولهذا فلا مانع إذاً من ذكر الوسيطتين ، ولا مانع أيضاً من الجمع بين الغابتين ، مادام يريد أن يخاطب الناس جميعاً ، حتى يفهمه الكل ، ويحترمه المجموع ، ويستحوذ على إجلال الناس كافة .

١٢٤ - الجاه والمال ، والشواغل ، والعلائق ، عند الغزالي قبل خلوته

بعد هذا يؤكد لنا الغزالي :

أن العزلة الصحيحة « لا يمكن أن تتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والشواغل ، والعلائق » (١) .

فهل كان الغزالي قبل خلوته ، مستوفياً هذه الشروط ؟

أما الجاه : فهو يرى « أن نيته في التدريس غير خالصة لوجه الله ، بل باعنها وحركتها طلب الجاه ، وانتشار الصيت » (٢) .

(١) منقذ ص ٦٢

(٢) منقذ ص ٦٣

أما المال : فهو يعمل على تحصيله ، حين يتقدمه من السلطان جزاء على تدريسه ، ونشره العلم بنظامية بغداد .

أما الشواغل والعلائق : فهو غارق فيها « لأنه غشوّ » ، ومبتلى بتدريس العلوم الشرعية ، والإفادة لثلاثمائة من الطلبة ببغداد ، والتصنيف فيها وقت فراغه .

وزيادة على ذلك ، « فهو يجلس الغيبة بعد الغيبة ، ليدرس الفلسفة ، ويجلس إلى كتب المتفلسفين » (١) .

١٢٥ - العلوم الشرعية غير مهمة وغير نافعة

نعم . يعلن الغزالي : أن العلوم الشرعية ، غير مهمة ، وغير نافعة ، لأن الصوفية ، أكدت له : أنها لا توصل إلى جنات الله ، ولا تدخل ناشريها في زمرة المقربين .

نعم هذا ما ذكره الغزالي ، بينما نسي قول أستاذه البسطامي - الذي ردد اسمه في كثير من صفحات الإحياء . وفي المنقذ نفسه ، والذي حكى أنه تلقى عنه الصوفية التي يتحدث باسمها - : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من السكرامات حتى يرتفع في الهواء ، فلا تغفروا به حتى تنظروا : كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟ » .

١٢٦ - نية الغزالي من جميع أعماله كسب الشهرة والصيت
ويعلن الغزالي أيضاً :

(١) منقذ ص ٢٢

ان جميع العلوم التي يدرسها ، ليست بنافعة في طريق الآخرة ، « لأن نية تدرسه لها غير خالصة لوجه الله » (١) ، وغير مراد بها نفع الناس ، بل باعث عمله هو « كسب الجاه والصيت » (٢) ، وما دامت النية الحسنة مفقودة ، فالعمل غير نافع ، بل كأنه غير موجود .

لأن الأعمال بالنيات ، ولأن لكل امرئ ما نوى .

هذا إن لم يزد صاحب العمل إنمياً وحرماً ، بسبب عدم خلوص نيته . وصفاء سريرته .

أظن بعد هذا ، يمكننا أن نعلن بكل تأكيد ما لم نذكرنا إليه سابقاً ، من : أن الغزالي كان إلى هذا الوقت — وقت أن وصلت منه ثمانياً وثلاثين سنة — وبعد أن انتهى إلى الأستاذية بالنظامية ، وبعد أن كتب في الشريعة ، وفي الأصول ، وفي الفلسفة وفي التعليمية .

أريد أن أقول إن جميع أعماله ، وحركاته ، وسكناته ، ونواياه ، إلى هذا الوقت ، كان الدافع لها طلب الجاه ، وكسب الشهرة ، واستلاب الصيت . أنا لا أقول هذا جزافاً ، إنما استنبطته من أعماله وتاريخ حياته ، وهما نذاؤيد ما قلت — ولو أنه في غير احتياج إلى تأييد — بما قال ، وصرح ، وأعلن على رهوس الأشهاد :

« ثم لاحظت نيتي في التدريس فوجدتها غير خالصة لوجه الله ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت » (٢) .

نعم . إنني أصدق كلامه ، وأستنسك بتصرّيه ، إذا ما أيدته الظروف المحيطة به ، وأكدت أعماله أنه الصدق والحق ، وأنظريه من جديد ، وأقبله على وجوهه ، إذا اختلف مع أعماله ، أو تناقض مع أقوال أخرى ، أو تضارب مع المنطق الصحيح .

أفعل ذلك لأستلب الحق الصريح ، والواقع الذي لا ريب فيه ، فأعتمد باليقين ، وألوذ بالصواب .

١٢٧ — الغزالي ينتابه تفكير عميق ، فيقدم رجلاً ، ويؤخر أخرى . وبعد أن يصل الغزالي إلى ما تقدم : ينتابه تفكير عميق ، يفكر باختيار لا عن اضطرار ، يقرب الأمر على جميع وجوهه ، فبعد أن تأكد تأكيدهم لا ريب فيه ، أن طريق الصوفية ، من شرطه الخلوة والعزلة ، والإعراض عن الجاه وللمال ، والبعد عن الوطن ، والأهل ، والصحاب ، وأن القيام بذلك أمر محتم ، وضربة لازب .

يرى أنه لا بد من تنفيذ ما تقدم ، فليخرج من بغداد ، مدينة السلام ، وعاصمة الإمام .

نعم : الرحيل الرحيل ، والبدار البدار ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وكل ما هو فيه من العمل والملم ، رياء وتخيل ، فلا مقصوده من الشهرة والصيت (١) قد وصل إليه !! ولا مطلوبه من الآخرة — كما يقول هو — قد استحوز عليه !! إذآ ، الهرب الهرب ، الفرار الفرار .

(١) لأنه كما سنرى فيما بعد ، يجري وراء شهرة أوسع ، ولو أنه لم يصرح هنا بذلك .

ولكن النفس — نفسه — والعقل — عقله الباطن — همس له (١).

إن ، هذه الخلوة ، حال عارضة ، وسريعة الزوال ، فأطع هذا الهاتف ، واترك بغداد ، واعتزل الناس ، مدة من الزمان ، حتى تؤدي المراسيم ، وتنفذ الشروط ، وستعود ثانية إلى ما أنت فيه ، مزيداً عليه ما حصلته وكسبته : سياحة في الأرض ، وتأليف خالدة ، وأخيراً : بطل الظاهر والباطن ، ووتد الأوتاد ، وقطب الغوث .

ولكن يرد عقله الواعي على عقله الباطن قائلاً :

« ولكن لو أذعنت ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم ، الخالي عن التكدير والتفويض ، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما ألفت نفسك هذا الترك ، ولا تتيسر لك معاودة التعليم والدرس » (٢) . فأنت الآن أستاذ بالانظامية ، وبطل للتكلمين ، وهادم للفلسفة ، ومفسد الباطنيين ، لديك مال وجاه ، وعندك سلطان يحميك من منازعة الخصوم ، فإذا ما تركت هذه الحياة ، ورحلت إلى حياة جديدة ، ربما تألفها نفسك ، وتطمئن إليها ، وربما لا تتيسر لك أيضاً العودة إلى حياة التدريس ، الذي جاهدت في الحصول عليها ست سنوات كاملات .

هذا نقاش سجله الغزالي في المنقذ ، بين عقله الواعي ، وعقله الباطن ، أو بين نفسه الخيرة وبين شيطانه — كما يقول هو — استنبط منه ما تريد ، وافهم من تضاعفيه ، ما يجب أن يفهم .

(١) هذا الكلام مستنبط من أقواله الآتية المنصوص عليها بين قوسين .

(٢) « منقذ ص ٦٤ »

لا . بل يجب أن نفهم ما يريده الغزالي حقيقة ، وما يجب أن يفهمه الناس عنه .

١٢٩ — تفكيره لمدة ستة شهور

تركنا الغزالي بعد النقاش السابق ، وقد عزم على الهرب والفرار ، وذلك عنده ليس بمركب سهل ، إن لم يكن هو الصعب كله ، ولكن الهدف الذي يبغيه ، أعظم من أن يقف في طريقه صعب ، أو أن تكتنفه عقبات .

إذاً . لابد من تذليلها .

فكيف يذلها ؟؟

هاهو ذا يأخذ في التفكير ، طلباً للتذليل :

فيفكر ويفكر ، ويعاوده التفكير ، قريباً من ستة أشهر .

ومن أول هذه الشهور ، وهو لا يدري أى طريق يسلك ؟

ولا في أى سبيل يجب أن يسير ؟

الفكر استولى عليه ، فتبطل عقله ، ولم يسترح باله ، ولم يعد بقار على أن يدرس أكثر من درس واحد كل يوم ، إرضاء لتلاميذه و « تطييباً لقلوب المختلفين إليه » (١) .

زاد للرض ، فنقل لسانه ، وبطلت قوة هضمه ، وضعت قواه ، وأخيراً ، صدر قرار الأطباء :

(١) منقذ ص ٦٤ .

« أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إلى العلاج ، إلا بأن يتروح السر ، هن الهم الملم ، (١) »

أمر نزل ! ولا بد أن يتروح السر عن الهم الملم !
نعم . القلب والروح ، حل بهما سر إلهي ، وأمر رباني ، فليس لأطباء
البدن فيهما علاج .

فمن المداوى إذا ؟ ؟

ومن الطبيب ؟ ؟

يعترف لـ الفزالي حينئذ فائلا :

١٣٠ — أمر الله وسر الله فطبيب الفزالي هو الله !

إني لما أحسست بعد ذلك عجزى ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت
إلى الله المتجاء المضطر ، ليعطيني الدواء ، وليدلي على طريق الشفاء فهو طيب
ولا طبيب لي سواء . وفعلا وصف الله الدواء وأمر فزال الداء .

١٣١ — كيف عالج الفزالي العقبات التي وففت في طريقه بعد خلوته

وهي « الجاه والمال والأهل و... »

يقول : « إن الله سهل على قلوب الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأهل ،
والولد ، والأصحاب » (١) .

١ — أما التعلق بالأهل ، والمال ، والولد ، والأصحاب ... فيها هو ذا
يصرح : بأن الله سهل عليه الإعراض عنها جميعا ، وسنرى مدى صحة هذا
فيما بعد .

(١) منقذ عن ٦٥ .

٢ — أما أن نفسه ، قد تأت الحالة الجديدة ، وما فيها من راحة وهدوء
فلا يمكنه تركها ، فلا خوف من ذلك :

لأنه وهو في العزلة سيدرس ، وسيعقد حلقات الوعظ والإرشاد ، في كل
مكان يحل به ، وسيؤلف ، وسيجادل خصومه ، ويذيع على أنصاره عن طريق
النأيف أيضا ، كما قال الإنحاف ذلك .

ولهذا فستكون حياته المقبلة ، شبيهة بحياته الحالية .

٣ — أما عدم تيسر معاودته للمنصب ، من الناحية الروحية والعلمية ،
فقطعا لا .

لأنه فيما بعد ، سيكون أقوى علما ، وأعظم شهرة ، وأكثر إحاطة ، بل
سيصبح فريدا في نوعه ، فذا في باب ، إذ سيجمع بين الحقيقة والشرعية ، بين
علم الظاهر وعلم الباطن .

أما أنه ، لن تيسر له المعاودة من الناحية المادية ، أي أنه لن يجد المنصب
خاليا ، فلماذا لا يترك فيه أخاه ؟

وفعلا — كما قال الإنحاف أيضا — أناب عنه أخاه في التدريس !

١٣٢ — كيف بنبته عن الضلوع ويقود أخاه إليه ؟

فإذا صح ما قاله الإنحاف ، فكيف ينبغي عنه أخاه ، مع إيمانه بأن
التدريس غير مهم ، وغير نافع في طريق الآخرة ؟

وكيف يجيز أن ما يراه ضلالا ، يدعو الناس عليه ، بل يقود أخاه إليه ،
فيورده مورد التهلكة « كما يعتقد الفزالي » .

نعم . قد يجيب الفزالي بأحد جوابين :

أ - إني وضعته بدلا مني ، إيهاماً للناس بأنني سأعود إلى عملي ، بعد قضاء أربي ، وهو الحج .

مع أنه يصرح بأنه « عزم على ألا يعاود بغداد أبدا » (١) .

ب - أو وضعته بدلا مني ، ليحفظ مكاني ، حتى عند رجوعي أجد خاليا . وعلى كلا الحالين - إذا كانت هذه الإنابة صحيحة - فهي تتعارض مع تصريحه هنا من أن التدريس غير نافع وغير مهم .

لأنه كيف يؤمن بهذا ، ثم يقود أخاه إليه ؟

فأيهما إذاً : هو الحق والصدق ؟

فهل كان يؤمن : بأن التدريس للعلوم الشرعية نافع ومهم ، وهو حينئذ يقول بلسانه ما ليس في قلبه ؟ أو كان يؤمن بعكس ذلك حقا ؟

نعم ، ستلمس فيما بعد ، أدلة وأدلة تؤكد لك :

أن تصريحه بأن التدريس غير نافع ، وغير مهم ، غير مطابق لما في نفسه . وغير صادر من قلبه ، ولهذا فهو يترك أخاه مكانه ، حفظا للمنصب ، أو إيهاما للناس بتأكد عودته . أو تقديمه إياه للناس بدلا منه ، أو ذلك كله معا .

١٣٣ - موقف الغزالي من الخليفة والصحاب

بعد ذلك يحدثنا الغزالي بأنه : بعد أن عزم على الهرب والفرار ، تظاهر بالخروج إلى مكة ، وهو يورى في نفسه سفر الشام ، خوفا من أن يطلع الخليفة ، وأصحابه الكثيرون ، على خروجه طلبا للمقام بأرض الشام .

(١) منقذ ص ٦٥ .

ولهذا قلطف بلطائف الحيل ، ليخرج من بغداد ، موهما الناس أنه سيرجع إليها ، بينما هو قد هزم على ألا يعاودها أبدا .

فإذا كان قد أقلع عن الرياء ، وعزم على التطهر بالخلوة والاعتزال ، فكيف يعلن للناس أنه ذاهب إلى مكة ، لحج بيت الله الحرام ، بينما هو يريد السفر إلى الشام ، والمقام بدمشق ؟

لماذا ، وهو قريب من نعمة الله ، وقوى بأمر الله ، حيث أصبح طبيبه ، ومنقذه ، يظهر غير ما يبطن ، ويقرئ ما فر منه ، اقترافا عن عمد واختيار ؟؟؟

لماذا يتحایل على الخروج من بغداد ، خوفا من الخليفة أن يمنعه ، ومن الأصحاب أن يقفوا في طريقه ؟؟؟

لماذا يخاف من الخليفة ؟ ألم يؤمن بأن ما أاراده هو كله خير ، وواجب أن يتجه إليه ؟؟؟

لم يخاف إيذاء الخليفة ومنعه له ، وهو المسترشد بتحمل الرسل الإيذاء في سبيل الحق ، ونشر الهدى ؟؟؟
مستشهداً بقول الله :

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا » . وغير ذلك من الآيات (١)

بعد هذا ألا يمكننا أن نقول - كما قلنا سابقاً في إنابة أخيه عنه في التدريس -

(١) منقذ ص ٨٩ .

يقول للغزالي بعد ذلك :

« هذا هو حديث أئمة أهل العراق ، أما حديث العامة :

« فمن بعد منهم عن العراق ظن أن ذلك لخلاف بيني وبين الولاية » (١)

« أما من قرب من الولاية : فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي ، والانكباب

علي ، وإعراض عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، (١) .

ولكن هل هذا صحيح ؟

فهل هو معرض عن الخلفاء وغير ملتفت إلى قولهم ، ومسميع لأمرهم ،

وخادم لأشخاصهم ، ومطيع لمجرد إشاراتهم ؟

أظن يكفي لتعرف مدى صحة هذا ، أن أكرر مقاله سابقاً في مقدمته

للفضائح الباطنية :

« ولا زلت مدة مقامي بمدينة السلام ، متشوقاً إلى أن أخدم

المواقف القدسية ، فأقيم به رسم الخدمة ، فأجتني بها أتعاطاه من الكلفة ،

نمار القربة والزلفى »

« حتى خرجت الأوامر الشريفة ، المقدسة المستظهيرية ، بالإشارة إلى الخادم

بمصنّف كتاب في الرد على الباطنية » .

« فرأيت الامتنال حتماً ، والمصارعة إلى الارتسام حزماً » .

أظن يكفي في الرد عليه كلامه هذا :

(١) « متقدّم ٦٦ »

إن الغزالي : إما أن يكون كلامه هنا غير مطابق للواقع ، فلم يتحايل ، ولم يظهر غير ما يبطن ، وهذا ما نشك فيه ونستبعده ، ولأن الوقائع للمادية تدحضه .

وأما أن يكون قوله : إنه هرب من التدريس ، لأنه غير نافع ، وإن الله سهل على قلبه الإعراض عن الجادو ... فالتجأ بكليته إلى الله ، غير مطابق للواقع ، وهذا ما نراه ونعتقد .

١٣٤ - آراء أهل زمانه في عزلته

هذا ما كان من أثر للعزلة في نفس الغزالي .

أما الأثر الذي أحس به من يحيطون بالغزالي ، فها هو ذا يقص علينا في منقذه ، مارآه أهل زمانه في عزلته ، فيخبرنا بأن أئمة أهل العراق ، قد تناولوه « الغزالي » بالتجريح ، سواء تناولوه فعلاً ، أو اعتقد أنهم سيتناولونه ، لأنهم لا يجوزون أن ينزل صاحب المنصب الأعلى في الدين ، وهو كرسى النظامية ، من هذا المستوى العالي ، إلى هذا المستوى الأدنى .

وهنا أيضاً يلعب العقل الباطن دوره .

فيحدثنا الغزالي قائلاً : « إن العراقيين ، ظنوا أن ما أنا فيه هو للمنصب (١) الأعلى في الدين ، ولكن كان ذلك مبلغهم من العلم » (٢) .

أما هو أي الغزالي ، فيعلم أن هناك منصباً أعلى من هذا هو منصب :

قائد حركة كلها خير ورشد (٣) .

« رسول الله على رأس المائة لإحياء دينه » (٤)

(١) ولأمر ما ، استعمال لفظة منصب

(٢) متقدّم ٦٥

(٤) متقدّم ٨٩

(٣) متقدّم ٨٩

إن ماسبق هو رأى من قرب من الولاة ، وقد رأوا الغزالي ، ورأوا الولاة عن كتب ، أما من بعد عن الغزالي وعن الولاة ، ويرى ما تقدم فيقول :

« هذا أمر سماوى ، وليس له من سبب ، إلا أنه عين أصابت الإسلام ، وزمرة العلم (١) » .

وهنا يلعب العقل الباطن دورا هاما ، فيحكى لنا ما يريد الغزالي أن ينشر عنه بين الناس ، وأن يعلن للملا أجمع ، ولو على لسان العامة حينما يقول : « إنه ما اعتزل إلا لأمر سماوى نزل عليه ، فلا حيلة له فيه ولا اختيار » إذا : هو أصبح على ثقة بربه ، يأمر بأمره ، ويقول للناس ما يريد الله ، ولا يفعل إلا ما يأمر به الله .

إذا هو شخص ليس ككل الناس بالنسبة إلى الله ، فهو مقرب إليه ، فأضحى من خاصته الذين يأمرهم ويحركهم ، والذين هم موطن لأمره وسره .

١٣٧ — هل صحيح أن الله سهل على قلبه الإعراض عن المال والولد ؟
بعدهذا نريد أن نعرف : هل صحيح أن الله سهل على قلبه الإعراض عن المال والولد ؟ ... سنرى !!

أما المال فقد فرق ما كان معه ، ولكنه ادخر قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق وقف على مصالح المسلمين

فلا يوجد مال أصلح منه للإنفاق على العيال (١) .
ولكن هل معنى الإعراض عن المال عند الصوفى ، هو أن يدخر جزءا منه لقوت الأطفال ، حتى ولو كفافا ؟ !!

أدع الغزالي يجيب على هذا في إحيائه ، شارحا الفكرة الصوفية ، عند الكلام على توكل للمعيل فى الجزء الرابع ، إذ قال :

« والتحقيق أنه لا فرق بين توكل للمعيل وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مرة ، وعلى الاعتداد بالموت ، والصبر على الجوع ، رزقا وغنية ، فله أن يتوكل فى حقهم .

فإن كان لا يطيق ذلك ، ويضطرب عليه قلبه ، وتشوش عليه عبادته ، لم يجوز له التوكل .

ولذلك :

روى أن أبا تراب النخشبى ؛ نظر إلى صوفى ممد يده إلى قشر بطيخ ، ليا كله بعد ثلاثة أيام ، يقال له : « لا يصلح لك التصوف ، إلزم السوق » (٢) .

إذا : هو عندما ادخر المال كفافا لعياله ، لم يعرض عنه ، أى أن الله لم يسهل على قلبه الإعراض عن الأولاد ، كما لم يسهل على نفسه الإعراض عن المال الذى يبقى عليهم ، فلا يستقبلون الموت رزقا وغنية .

بعد هذا التدليل والاستشهاد ، هل قول الغزالي :

إن الله سهل على قلبه الإعراض عن المال والولد صحيح ومطابق للواقع ؟

أو افترض — كعادته — أن الله سهل عليه ذلك ؟

ولكن : لماذا فرض الغزالي هذا الفرض ؟؟

نعم ، لأنه لا بد من هذا الفرض ، حتى يقوم بالمراسيم الصوفية ، « ولو افترضنا »
ويؤدي الشرائط المقررة ، فيجوز الامتحان ، ويصبح صوفيا . أو على الأقل ،
حتى يفهم عنه الناس ، والصوفيون ، أنه سار في الطريق الذي رسموه ، وفقد
الشروط التي حتموها .

١٣٨ — الغزالي بشرح الخلوة والعزلة الصوفية الصحيحة :

بعد ذلك يأخذ الغزالي في شرح العزلة والخلوة الصوفية الصحيحة قائلا :
« إن أول الشروط التي يجب أن يسير عليها البادى في هذا الطريق

هي :

أولاً : « تطهير القلب بالكلية عما سوى الله » ، وهذا أول شروطها .

ثانياً : « استغراق القلب بالكلية بذكر الله » وهذا مفتاحها ، الجارى

منها مجرى التحريم من الصلاة .

ثالثاً : « الفناء بالكلية في الله » وهذا آخرها (١) .

ويقول في إحيائه (٢) شارحاً هذه العزلة وتلك الخلوة :

« إن ذلك يكون بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفرغ القلب منها ،
ويقطع الهمة عن الأهل ، وللمال ، والولد ، والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ،

بل يصير الشخص في حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه
في زاوية ، مع الاقتصار على الغرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب ، مجتمع
الهم ، لا يشغل فكره بقراءة قرآن ، أو تأمل في تفسير ، أو كتابة حديث ، أو نحو
ذلك ، بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء ، سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه
في الخلوة ، قائلاً بلسانه : الله .. الله .. الله . على الدوام ، مع حضور القلب ،
حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك لسانه ، ويرى كأن الكلمة جارية على
لسانه ، إلى أن تمحى من القلب صورة اللفظ ، وحروفه وهيبته . ويبقى معناها
مجرداً في قلبه ، حاضراً فيه لازماً له ، لا يفارقه (١) »

١٣٩ — هل عزلة الغزالي صوفية حقاً ؟

فهل بعد هذا الشرح للعزلة الصوفية الحققة ، التي حكاهما الغزالي في المتن ،
وفي الإحياء كما تقدم ، كانت عزلة الغزالي إذاً ، مستجيبة لهذه الشرائط ، وتلك
الأوصاف ؟؟

يترك الغزالي بغداد ، ومعه عياله ، ويدخل الشام ، ويقيم بها نحواً من
سنتين ، ويقول : إنه ما كان له شغل إلا العزلة والرياضة والمجاهدة ، تركية
للنفس ، وتهدياً للأخلاق ، وتصفية للقلب (١) .

ولكن هل اعتزل لأنه أحس هذا بقلبه ؟ وشعر ذلك بروح من عنده ؟
أو اعتزل لأن هذه العزلة ضرورية ، كما كان حصله من علم الصوفية ؟
كما يقول هو نفسه في المتن (١) .

(١) « متقد من ٦٦ » (٢) « متقد من ٦٦ »

(٢) « ج ٣ من ١٧ »

(١) « متقد من ٦٨ »

نعم : إننا نراه ، يصعد منارة دمشق طول النهار ، ويفلق بابها على نفسه .
نراه : يدخل صخرة بيت المقدس كل يوم ، ويفلق بابها على نفسه
أيضاً (١) .

ونراه أيضاً : يعقد حلقات الوعظ — كما يقول الإنحاف — ويحدث
بلسان الصوفية ، ويكتب الإحياء .

ونرى : داعية الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، تتحرك
فيه ، فيسير إلى الحجاز (٢) .

ونرى : الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن تجذبه ، فيعاوده ، تحت ضغط
هذا الجذب ، وتلك الدعوة (٣) .

ونرى : أن حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات اللعاش ، تثير
فيه وجه المراد ، وتشوش عليه صفو الخلوة (٤) .

ونرى : أنه ما كان يصفوله الحال ، إلا في أوقات متفرقة (٥) .

ونرى : أنه مع ذلك كله ، ما كان يقطع طمعه فيها ، « الخلوة » ولهذا فلا
يلبث إلا أن يعود إليها ، ثم تدفبه العوائق عنها ، ولكنه يعود إليها
ثانية (٦) .

هذه خلوته ، وتلك عزلته ، التي دامت عشر سنوات أو تزيد !!

(١) « منقذ من ٦٦ » (٢) « منقذ من ٦٧ »

(٣) « منقذ من ٦٧ » (٤) « منقذ من ٦٧ »

(٥) « منقذ من ٦٧ » (٦) « منقذ من ٦٧ »

نعم ، تلك خلوة الغزالي النظرية ، التي شرحها في إحيائه ومنقذه ، وهذه
خلوته العملية ، التي حكاها واعترف بها في منقذه .

نعم ، سبق أن رأيت الشروط التي يجب توافرها في خلوة الصوفي ، كما
حدثنا بها الغزالي .

وها أنت ذا قد رأيت مدى تنفيذ الغزالي لهذه الشروط ، كما حدثنا
هو نفسه .

فهل كانت عزلة الغزالي العملية متفقة تماماً مع خلوته العلمية ، فتصبح
خلوة حقيقية إذاً ، أو هي مختلفة ومتناقضة ، فتصبح خلوة صورية ؟؟

نعم ، رأيت سابقاً : أن إعراضه عن اللال لم يكن موجوداً طيلة العزلة ،
إذ أبقى معه قدر الكفاف وقوت الأطفال ، وما توكل في حقهم ، فما جعلهم
يستقبلون الموت رزقا وغنيمة !!

وكذلك : إعراضه عن الأولاد لم يكن موجوداً ، حيث صحبهم معه ،
وحيث كان يسهر على راحتهم !!

ورأيت أيضاً : أنه كان يكتب الإحياء . وأنه كان يعقد
حلقات الوعظ !!

وأنه كان يعظ بلسان أهل الحقيقة والمتصوفة !! مع أن من شروط
الخلوة الصحيحة ، كما سبق أن قال هو نفسه : « الاقطاع التام » حتى عن

قراءة القرآن ، والتأمل في التفسير والحديث ، والسكينة ونحو ذلك .

ولنفرض ، أن خلوة الغزالي بدمشق وبیت المقدس ، كانت صوفية حقة .

فهل معنى ذلك ، أنه يصبح متجها بكلية إلى الله ، متغنيا في حب الله ، مستغرقا قلبه تماما بذكر الله حين الخلوة ، وبعد الخلوة ، كما قال هو ، ويظل كذلك طول حياته ، حتى يلقى ربه ؟ ؟

أو بمجرد انتهاء الخلوة ، يرجع فرداً عادياً كسكل الأفراد ، تتحرك فيه دواع ، وتجذبه الهمم ، ويحب الأولاد ، والمال ، ويحن إلى الوطن ، ويعود إلى معترك الحياة ، ومخالطة الصحاب ، ويشعر بالخوف من السلطان ؟ ؟ !

نقول هذا ، لأننا نراه ، كما تقدم ، يحب المال والأولاد ، ويحن إلى الوطن ويخشى السلطان ، حين الخلوة وبعدها .

١٤٢ - لماذا يذكر الحج الآن ؟

ومن الغريب ، أننا نراه ، وقد تحركت فيه داعية فريضة الحج وزيارة الرسول في آخر عزلته .

وهنا ملاحظة نهملس بها .

لماذا يذكر الحج الآن ، وهو طول حياته مستطيع إلى ذلك سبيلاً ؟ ؟ (١) .

لماذا يذكر الآن محمداً عليه السلام وقبره ، مع أنه لم ينس إبراهيم خليله ؟ ؟

(١) ويستدل على هذه الاستطاعة ، بأنه فرق ما كان زائداً عن حاجته من المال ، وأبقى ما يكفى الأولاد ، إذ أن هذا الزائد كان لازماً عليه أن يحج به ، لأنه يحمله حيث يشاء مستطيلاً .

لماذا يذكر الحج وهو في أواخر عزلته ، وعندما تحركت فيه داعية الرجوع إلى بلده العراق ، فحسب ؟ ؟

نعم !! لأنه كما يقول :

جذبته الهمم ، ودعوات الأبطال إلى الوطن فعاوده .

نعم ! هو يريد العودة إلى الوطن ، ولكنه خرج من بغداد ، تحت ستار الذهاب إلى مكة ، فكيف يعود إليها وهو لم يحج بعد ؟

إذاً : فلتشد الرحال إلى مكة . وليتجه نحو قبر الرسول ، ولو كان ذلك اضطراراً لا اختياراً .

١٤٣ - إحساس الغزالي باعتراضه الناس عليه

ومن صدق الصراحة ، أن يحس الغزالي باعتراض الناس عليه ، وكأنهم يقولون له :

أيئت العزلة والخلوة ، وأين الفناء في الله ؟ ؟ إذا كانت تعاودك هذه الرغبات ، بين كل حين وحين ، التي حكيتها واعترفت بها ، سيما بعد رجوعك من الشام ؟ فيقول لهم :

لا تعترضوا ، فإنني آثرت العزلة أيضاً ، بعد رجوعي من الشام حرصاً على الخلوة ، وتصفية للقلب بالذكر (١) .

نعم !! ألا يمكن أن تقول له :

لنفرض : أننا آملنا بما كتبت ، وبما أجبت ، وبما طلبت منا أن نؤمن به . ولكن خلوتك التي تنخلها هذه الرغبات ، وهذه الأعمال ، لا يمكن أن

(١) « منقذ » ص ٦٧ .

تكون خلوة صوفية صحيحة ، مستوفية الشروط مكتملة ، الأركان التي حكيتها أنت لنا .

وبعبارة أدق : هي غير موصلة إلى الله ، بل ولا تدخل صاحبها في زمرة القربين ، فضلا عن أنه لا يمكن أن يكون في عداد للتصوفين .

وكانني به يريد أن يؤكد رأينا هذا ، حين يعتذر عن ذلك بقوله : إن حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، كانت تغير في وجه المراد ، وتشوش على صفو الخلوة (١) .

نعم !!

إن معنى هذا أن الغزالي ، يريد أن يقول لنا : إنه لم يختل خلوة صحيحة !! وعزلة صافية صادقة !!

يريد أن يقول لنا : إن الحال ما كان يصفوه له ، إلا في أوقات متفرقة !! وهل كان يقنع بهذه الخلوة ، وتسكفيه فوصلته إلى الله فعلا ؟؟ يقول :

«ولكني لم أقطع طمعي فيها ، إذ كلما دفعتني العوائق عنها ، عدت إليها» .

ومتى يقطع الغزالي الطمع فيها ، ويكتفي بها ، ولا يعود لطلبها ؟؟ إن هذا لجوابه عند ربى !!

١٤٤ - هل أصبح الغزالي صوفيا حقا ؟

وأخيرا . وبعد كل ماتقدم أريد أن أسأل سؤالاً صريحاً ، وأرجو أن أوفق بالإجابة عليه بصراحة أيضاً ، وهو :

هل أصبح الغزالي بهذه العزلة صوفيا حقا ؟؟
يصرح الغزالي :

بأنه في عزلته : كان حريصا على اللال فاستبقاه ، وكان متعلقا بالأولاد فصحبهم ، وكان قائما بالدرس ، وعقد حلقات الصوفية ، وبالتحدث بلسانهم ، ناشرًا تقاليدهم ، مسجلا أبحاثهم ، شارحا آراءهم ، متوجا كل ذلك ، بكتابة إحيائه الخالد !!

وكان مؤديا فريضة الحج ، زائرا قبر الرسول كما زار الخليل عليه السلام ، وكانت تجذبه نفسه ، ودعوات أطفاله نحو الوطن .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش تملأ قلبه ، وتملك حواسه .

يخبرنا الغزالي بأن كل هذا :

كان يغير فيه وجه المراد ، ويشوش عليه صفو الخلوة !!

نعم : بعد أن قدمنا بين يديك كل هذا ، أعتقد أنه من السهل الإجابة على السؤال السابق ، مع التفكير في الإجابة على سؤال جديد وهو :

هل عزلة كهذه يمكن أن يتخرج فيها صوفي ؟

وهل هذه عزلة تتوفر فيها الشروط التي رسمها الصوفيون ، كما شرح ذلك الغزالي نفسه ؟؟

نعم ، قد يمكن أن تسمى عزلة وخلوة ١١

نعم ، وقد يمكن أن تفترض أنها خلوة ، وعزلة كذلك .

ولكن : هل هذه العزلة الغزالية العملية ، تنطبق تماماً على العزلة الغزالية النظرية ، التي حكاهما وشرحها هو نفسه في الإحياء ؟

ولكن : هل صاحب هذه العزلة الصورية ، ورجل تلك الخلوة الافتراضية ، يمكن أن يعتبر صوفياً حقاً ، أو يجب أن يعتبر صوفياً صورة ، وافتراساً فحسب ١١٩٩

أعتقد أنه من السهل والواضح الإجابة على هذين السؤالين ، بعد الذي قدمنا ..

و — ماذا بعد الخلوة والعزلة ؟

هل الانخراط في سلك الصوفية المرغوب فيه ؟

أو الرجوع إلى التعليم المرغوب عنه ؟

١٤٥ — لماذا خرج الغزالي من عزلته ؟

رجع الغزالي من الشام ، وظل بطوس مسقط رأسه ، مُفضلاً الخلوة والاهتزال ، وفي آخر أيام عزلته التي دامت عشر سنوات أو تزيد ، أحس شيئاً جديداً ، حدثنا به في المتنقذ قائلا :

إنه لمس « أن قد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ، وأحس فتور الخلق ، وضمف إيمانهم ^(١) » .

ورأى أيضاً : « من خاض منهم في علم الفلسفة ، أو انتسب إلى الباطنية ، أو وسع بالعلم بين الناس ، أو عرف شيئاً من التصوف ^(٢) » .

نعم رأى الغزالي :

أن جميع هؤلاء يوردون شياً ، وإن تهاقت أجزاءها ، ويعرضون أسباباً ، وإن هتت حلقاتها ، تدعو إلى طرح الدين ، ومجانبة تعاليم الرسول الأمين .

(٢) « متنقذ من ٨٤ و ٨٥ » .

(١) « متنقذ من ٨٨ » .

وليس أيضاً : « أن نفسه مليئة بالرغبة للمقدرة ، لدحض الرأي المخاطل ،
والنظر غير المستقيم ، حتى أن فضح هؤلاء عنده أيسر من شربة ماء » (١) .
فهو العالم بكل فن ، الساج في كل نهر ، حيث خاض بحار الفلاسفة ،
والباطنيين ، والمتكلمين ، والصوفية .

نعم ، أحس أيضاً : بأن فضح هؤلاء « ما دام قادراً على ذلك متعين عليه
و محتوم لديه » (٢) .

هذه هي الأسباب التي دفعت الغزالي إلى الخروج من عزلته ، وهانحن
أولاء سنتناولها بالنقد والتحليل :

١٤٦ - مدى صروق إحصاس الغزالي بأسباب عزله

أ - نعم فقد عم الداء

أما أنه قد عم الداء وأشرف الخلق على الهلاك ١١
فلماذا ؟

هل حدثت حادثة قوية تشعر بالفرق بين حال العامة الآن ، وبين
حالهم قبلاً ؟

هل فتور دينهم ، وضعف إيمانهم ، الذي يرجع إلى خوضهم في الفلسفة ،
وتشبههم بأوهامها ، والتصوف وتعلقهم بمخالاته ، وبالعلم وتمسكهم بشبهاته ،
وبالإمام ومعصوماته ، لم يكن موجوداً قبلاً ؟

هل حالهم الآن ليس كحالهم سابقاً ، عندما ناضل الفلاسفة ، وخاصم

(٢) « منقذ من ٨٨ »

(١) « منقذ من ٨٧ »

التعليميين ، فبدد الأوهام والضلالات ، ودرس في النظامية ، فأثبت رأى الشرع ،
وقوى حجة الدين ؟

هل حالهم الآن ليس كحالهم ، عندما تركهم مؤمناً أن التدريس غير نافع
وغير مهم ، وأن العلوم التي يقوم بتدريسها غير مهمة وغير نافعة ؟

إي وربي !! إن الحال هو الحال ، والناس هم الناس ، والعلم هو العلم ،
ومواد التعليم ببغداد ، هي عين مواد التعليم بنيسابور ، سيما أنه إذا عاد إلى
نيسابور ، فسيجدها منتهجا معيّنًا ، ونظاماً موضوعاً ، لا يملك المدرسون
تغييره ، ولا يقدر الأماتذة على تغييره ، فهي علوم شرعية ، وما يدور حولها
من اللسانيات والكلاميات ، اللهم إلا بعض الحرية للأستاذ ، وقليلاً من
حسن التصرف من المدرس .

هذا - أولاً - حيث عم الداء .

ب - ومرصده الأطباء

أما - ثانياً - فقد مرض الأطباء .

نعم ، الغزالي يريد أن يفهمنا : أن علماء العقول قد ضعفت ، وأطباء
الأرواح قد مرضت .

ولكن أليس هو نفسه واحداً من هؤلاء ؟

فهل هو ضعيف ومريض ؟

يجيبنا على هذا السؤال قائلا : إنه طيب قوی . الرغبة تلاء ، والمقدرة
تنفجر منه ، وفضح هؤلاء الذين ينشرون الشبهات ، ويتعلقون بالأوهام ، أيسر
عنده من شربة ماء .

نعم ؛ إنه يريد أن يفهمنا : أن هناك مريضاً ، بل مرضى كثيرين ، وفي خطر : ومشرفين على الهلاك !!

بل هناك وباء ، قد عم الناس أجمعين !!

نعم ، وهناك أيضا أطباء ، ولكنهم مرضى ، وكيف يداوى المريض السليم ؟

ويريد أن يفهمنا أيضاً : أن هناك طبيبياً ، يعرف سر جميع الأمراض ، إذ زاولها وخبرها جميعاً ، وهذا الطبيب ، قوى وقادر على أن يمنح الشفاء ، لكثرة خبرته ، وطول تجاربه ومراته .
إذاً : من هم المشرفون على الهلاك ؟

هم الناس جميعاً !!

ومن هم الأطباء المرضى ؟

هم الموسوون بالعلم ، والفلاسفة ، وبعض الصوفية !!

ومن هو الطبيب الراغب ، القوى القادر ؟

هو حجة الدين ، وإمام المسلمين ، أبو حامد الغزالي !!

نعم ، هذا هو . ما يريد أن يفهمنا إياه .

١٤٧ - العقل الباطن يعلم ماخفى واستتر

إذاً : فالواجب على الغزالي ، أن يقوم من فوره ، لينج الناس طبعاً ، ولينشلهم من الهلاك .

ولكنه يترخص ، ويظل معتزلاً الناس ، لماذا ؟

١ - « لعجزه عن إظهار الحق بالحجة (١) » .

كيف هذا ، مع أنه قوى وقادر ؟ ففضحهم (٢) - بالحجة طبعاً - عنده
أيسر من شربة ماء (٣) .

٢ - ولأنه يشعر بأنه « لن يمكنه أن يستقل بكشف هذه الغمة ، ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل (٤) » .

إذاً : هو يشعر بضوئه ، وبعدم قدرته على الاستقلال بمجاهدة هؤلاء الضالين .

إذاً : هو ليس بقادر على فضحهم مادام غير قادر على مجاہدتهم ومحاجبتهم .

٣ - « ولأنه سيعادى أهل الزمان بأجمعهم ، إذا اشتغل بدعوة الخلق

عن طريقهم إلى الحق ، ولن يمكنه أن يقاومهم ، فكيف يعايشهم ؟ » (٥) .

إذاً : هو يخاف الناس ، ويخاف مقاومتهم ، ويعمل على عدم معاداتهم ،

لأنه يعايشهم ، ولا بد أن يسألهم .

وهنا يجب عليه أن يسكت على امتهان الدين ، ودوس حرمت الإسلام !!

نعم : لأنه يريد أن يعيش ، ويعيش في سلام ، وأمان واطمئنان ، أما اقتداؤه

بالمرسلين ، وبالنبي ، وبآيات القرآنية التي ردها بعد أسطر ! وفي نفس

الصفحة ! مثل :

(١) « منقذ ص ٨٨ » .

(٢) ترددت كلمة فضح كثيراً ، ولكن حرصت عليها لأنها لفظة الغزالي ولو أنه عبر عنها بالإفصاح .

(٣) منقذ ص ٨٧ » .

(٤) منقذ ص ٨٨ » .

(٥) « منقذ ص ٨٨ » .

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ... »
وغير ذلك من الآيات .

فلا يهيم ، وليسكت الغزالي ، وليبق على عزله ١١

١٤٨ -- مقررات محكمة لتفني ما يبرر الغزالي

يخلص الغزالي بعد أن حاك ما تقدم إلى قوله :

إني أرى : أن ذلك لا يتم إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر (١) .

نعم ، لأن هذه النتيجة التي انتهى إليها ، هي ما ستكون مقدمة ، ليرسل على أثرها نتيجة أخرى ، فيقول :

« ولكن ، قدر الله داعية سلطان الوقت من نفسه — لا بتحريك من خارج — فأمر إزام بالنهوض إلى نيسابور لتدراك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حدا كاد ينتهي — لو أصررت على الخلاف — إلى حد الوحشة » (٢) .

١٤٩ — العقل الباطن يعلن ما خفى مرة أخرى

ولكن : لماذا حرص الغزالي على أن يفهمنا أن ذلك ، كان بدافع من نفس السلطان ، لا بإشارة من خارج ؟

فهل سمع أن أحدا ممن يهمهم أمره ، أو ممن يخلصون له النصيح ، ويصدقون له القول من بطانة الإمام ، أشار عليه بذلك بناء على تلميح من الغزالي ، فاضطر أن ينفي هذا ؟

قد يكون ١١

ولكن لماذا حرص أيضا على أن يفهمنا ، أن الإمام أمره أمر إلزام ، لدرجة أنه لو لم يقبل أمره ، لحصلت القطيعة بينهما ؟

لماذا قال هذا ؟

هل كانت نفسه توسوس إليه بالبقاء في العزلة ، مع أنه تمنى قطعها ، ولم يمنعه إلا عدم وجود السلطان بجواره . يسنده ويقويه ؟

وأيا قد يكون ١١

١٥٠ -- إغضاب الله والناس ، ولا إغضاب السلطان !

ولكن : لماذا أغضب الغزالي الله هناك ، فلم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر ، بل يترخص في الاعتزال ؟ ؟

ولكن : لماذا يخاف عداوة الناس ، ومضايقتهم له في معاشه ، ويترخص في الاعتزال أيضا هناك ؟ ؟

بينما لا يترخص هنا في الاعتزال أيضا أمام أمر السلطان ، فلا يسمع قوله ، ولا يلي دعوته ١١

قد يمكن أن يعتذر عنه : بأن سبب الترخص قد كان بسبب خوفه على نفسه ، من أن يضايق في معاشه ، وحرصه على صلته بالناس ، ولكن : لما أتى السلطان فبدل من ضعفه قوة ، وغير من خوفه جرأة ، وجب عليه العمل حينئذ .

نعم : هي معاذير لا يمتد الغزالي أن حلفاتها محكمة ، ومقرراتها متسلسلة ١١

(١) « متخذ من ٨٨ » . (٢) « متخذ من ٨٨ » .

١٥١ - العقل الباطن يعلم ما استر مرة ثالثة . أو الغزالي يعط نفسه
نعم . يرد الغزالي على هذا ، وكأنه قد أحس باعتراض الناس عليه قائلا :
إن سبب الرخصة في الاعتزل قد ضعف « أى لم يبطل » إذا : ففي إمكانه
أن يستمر على العزلة .

هذا ما يريد أن يفهمنا إياه ، لأنه يريد أن يقول لنا كلاما بعد ذلك ،
ولأنه يريد أن يجرد من نفسه غزاليا آخر يعظه قائلا له :
« لا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة ، الكسل والاستراحة ،
وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ! !

ألم تسمع قول الله تعالى ؟

بسم الله الرحمن الرحيم ، ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا
وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ،
وليعلمن الكاذبين .

ألم تسمع قول الله لرسوله وهو أعز خلقه ؟

ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا ، حتى أتاهم
نصرتنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين .

ألم تسمع قول الله جل جلاله ؟

بسم الله الرحمن الرحيم ، يس والقرآن الحكيم ، إلى قوله إنما تنذر من
اتبع الذكر ، (١) .

(١) « متفق من ٨٨ و ٨٩ » .

ألم يحفظ الغزالي القرآن قبل أمر الإمام له ؟ !

ألم يحفظ الآيات السابقة ، عندما سكنت عن الأمر بالمعروف . والنهي عن
المنكر ، خوفا من عداوة الناس ، ومضايقتهم له في معاشه ؟ !

ألم يعرف ، أنه لا ينبغي له أن يكون الباعث على عزله وسكوته ،
الراحة والكسل ؟ !

نعم : الغزالي يعرف كل ذلك ، وهو واع لسكل هذا ، عارف لما يقول ،
متيقظ لما يكتب .

ولكنه اعتزل وابتعد ، فأراد أن يشرع العزلة والخلوة ، فيأتيك بالأدلة ،
ويجمع لك البراهين ، ويحشد لك كل ما يستطيع ، تدليلا على صحة ما فعل .

ولكن السلطان يأمره بعدم العزلة ، وبالنهوض إلى نيسابور ، فأراد أن
يشرع العمل ، والتدريس والنضال ، فيأتيك بالأدلة ، ويجمع لك البراهين ،
ويحشد لديك كل ما يستطيع ، تدليلا على صحة ما سيفعل أيضا ! !

نعم : يريد أن يجعلك توقن أن ما فعله كله حق ، وأن الحق هو كل
ما سيفعل ! !

فالحق لديه حق ، لا لأنه حق في ذاته ، ولكن لأنه ما يريد ! !

١٥٢ - تشابه في التفكير بين خروج الغزالي من بغداد وتركه التدريس ،

وبين دخوله نيسابور وعودته إلى التدريس

وأيا : توجد ملاحظة هامة ودقيقة على أسلوب الغزالي الفكري عندما

خرج من بغداد ، وترك التدريس ، وعلى أسلوبه عندما رجع إلى نيسابور ،
وعاد إلى التدريس .

فإننا لو نظرنا إلى الماضي القريب ، ففحصنا أسلوب الغزالي الفكري
والنفسى ، بل واللفظى أيضاً ، لوجدناه واحداً ، عندما ترك بغداد ، نافضاً يده
من التدريس ، وعندما عاد إلى نيسابور ، مقبلاً على الدرس والتعليم .

فهناك : فى بغداد ، يبدأ بملاحظة أحواله وأعماله ، فيجد أن نفسه على شفا
جرف هار ، فيفرق فى التفكير للخروج من هذه الشكوك ، ويظل مدة من
الزمان ، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وأخيراً يصح العزم « فيلجأ إلى الله الذى
يسهل عليه الخروج من بغداد » .

فيترك التدريس جانحاً إلى العزلة والفرار ١١

وهنا : فى العزلة ، يبدأ بملاحظة نفسه ، وخلوته واعتزاله ، فيجد أن
نفسه أيضاً على شفا جرف هار ، فيفرق فى التفكير مدة من الزمان ، ليخرج
من هذه الحيرة ، وتلك الشكوك ، فيقدم رجلاً نحو الخروج من هذه العزلة ،
ويؤخر أخرى ، فلا يتركها حتى يأمره الإمام ، وأخيراً « يلجأ إلى الله الذى
يسر عليه الحركة إلى نيسابور » وترك الخلوة ، والعودة إلى التدريس والنضال .
نعم ؛ هناك فى بغداد ، نرى أن أسلوبه التفكيرى ، وحيرته النفسية ،
وما يدور بخلفه من معانٍ وحجج ، وما يتلجلج فى ضميره من شكوك
وهواجس ، بل ما يلفظ به من أقوال ، وما يقوم به من أعمال .
نرى ذلك ؛ هو نفس الأسلوب الذى قام به هنا فى الخلوة ، ولو ضمنا هذا

إلى ماسبق من تقدمات ، لنحتم علينا أن نعتقد : أن الغزالي كان فى كل
ما يصدره ، إنما يرسله من عقلية واحدة ، وتفكير واحد ، ومنطق واحد ،
ولغاية واحدة ، ويسير نحو هدف لم يتبدل .

اللهم : إلا تغاير ضئيل ، وتباين أضال ، أراد أن يرجعه الغزالي إلى العمر
الزمنى ، وإلى الملابس التى لا بست عزلته وعودته ، ثم للمدة التى فصلت بين
الحركتين ؛ حركة الخروج من بغداد وترك التدريس ، وحركة الدخول إلى
نيسابور ومعاودة التعليم ، حيث أنها تزيد على عشر سنين عدداً .

ولهذا التشابه الأكيد ، والتماثل الآكيد بين الحركتين ، ألا يمكننا
أن نقول ؟ :

إن الخلوة والعزلة ، لم تعد الغزالي شيئاً ما ، لا فى روحه وتفكيره ، ولا فى
وسائله وغاياته ، ولا فى علمه ويقينه ، ولا فى شكه واطمئنانه .

أو بعبارة أدق : كانت خلوته وعزلته كما تقدم ، افتراضية فحسب .

نعم : هو ترك التدريس حقاً ، فر من بغداد بلا نزاع ، اعتزل بالشام حقيقة ،
اختل بصخرة بيت المقدس ، وأغلق على نفسه منارة دمشق بكل تأكيد .

ولكن : كان ذلك كله عملاً مادياً محضاً ، لم يشع من روحه ، ولم ينبثق من
قلبه ، ولم يدفع إليه بوحى من ضميره ، وإلهام من نفسه .

ولهذا : فالدافع للحركة الأولى ، هو الدافع للحركة الثانية ، أو كما يقولون :
ما أشبه الليلة بالبارحة !

١٥٣ - براعة المقطع ، أو حسن الختام ، أو السبب المباشر لكتابة المقتر

ولكن الغزالي يشعر بكل هذا ، فيريد أن يدل على أن هذا الرجوع ،
وتلك العودة لا يصح أن تنقد أو تجرح .

هذا مع ملاحظة أن هذا التدليل ، هو السبب المباشر لتأريخ الغزالي نفسه ،
ولكتابة « المنقذ من الضلال ، وللموصل إلى ذى النزة والجلال » .

نعم ، شعر الغزالي بهذا النقد :

لأنه كان يدرس بنظامية بغداد ، وهي أرقى بكثير من نظامية نيسابور ،
فهى عاصمة للملك ومقر الخلافة .

ولأن المواد التى تدرس بهذه ، هى التى كانت تدرس بتلك ، فلما هيج
واحدة ، والروح واحدة ، ونظام للملك هو الذى أنشأ هذه للدارس ، وحدد
وسائلها ، وأهدافها جميعا .

فلماذا ترك التدريس هناك ، وهو الآن يعود إليه هنا بعد عشر سنوات
أو تزيد ؟

نعم : شعر الغزالي بكل ذلك ، وبأن الأدلة التى قدمها لك سابقاً
غير كافية .

وشعر أيضا بأنك قد نحس أنه رحل إلى نيسابور ، لأنه أرغم من الإمام
على ذلك .

فأراد أن يشرك غيره معه فى رأى ، وأراد أن يدل على أن الصالحين
ومناماتهم ، والمتصوفين وقلوبهم ، والمسلمين وحاجتهم إليه ، كانت تبعث على هذا
العمل ، وتدفع لذلك الخروج من العزلة ، والعودة إلى التدريس . فحدثنا بأنه :

١ - شاور فى ذلك جماعة من أرباب القلوب وللشهادات ، فاتفقوا على
الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية (١) .

ب - وأخبرته كثرة متواترة من الصالحين ، أنها رأت فى المنام ، ما يشهد
بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد (٢) .

ج - وأن الله قدر تلك الحركة على رأس هذه المائة ، حيث قد وعد
الله بإحياء دينه ، وذلك بإرسال مصلح على رأس كل مائة (٣) .

فاستحسبكم لديه الرجاء ، وغلب عليه حسن الظن ، بسبب هذه
الشهادات (٤) .

١٥٤ - العقل الباطنى يظهر ما استمر مرؤ رابعة

وأخيراً ، ها أنت ذا تلمس أن الغزالي ، كما حدثنا هو بذلك ، أصبح :
١ - قائد حركة كلها خير ورشد (٥) .

٢ - مصلح القرن (٦) .

٣ - مبعوث الله لإحياء دينه (٧) .

هذه ممان الصقها بنفسه ، وخلعها على شخصه ، ولو واثقه على لسان
الصالحين ، الذين رأوا فى مناماتهم ما يدل على ذلك .

لا أريد أن أفرض أن الغزالي لا يفهم قيمة الأحلام فى الإسلام ، إنما الذى
لا شك فيه أن الغزالي يعرف جد المعرفة ، أن الإسلام دين للمنطق السليم ، والعقل

(١) « منقذ من ٨٩ » . (٢) « منقذ من ٨٩ » . (٣) « منقذ من ٨٩ » .

(٤) « منقذ من ٩٠ » . (٥) « منقذ من ٨٩ » . (٦) « منقذ من ٨٩ » .

(٧) « منقذ من ٨٩ » .

الحر ، لادين الرؤيا والأحلام ، والنمات والأوهام ، أو على الأقل ، كان يجب عليه أن يعرف هذا !!

١٥٥ - باسم الله مجراها ومرساها

وأخيراً : وفي ذى القعدة سنة ٤٨٨ هـ ، تنحرك القافلة إلى الأمام .

فباسم الله مجراها ومرساها .

باسم الله مجراها من طوس ، وبسم الله مرساها إلى نيسابور .

باسم الله مجراها من الخلوة والاعتزال ، وباسم الله مرساها إلى التدريس والنضال .

١٥٦ - للحق وللنارح

إلى هنا : انتهى قلم الغزالي من تأريخه حياته ، ومن إرسال اعترافاته ، كما أراد هو .

وإلى هنا : ينتهى تقدنا ، وتوجيه تلك الاعترافات ، كما يريد المنطق ، والحق ، والتاريخ . مؤمنين بصدق كل كلمة كتبناها ، مخلصين في إرسال كل فكرة سجلناها ، متحملين كل المسؤولية أمام الله ، وأمام التاريخ ، وأمام الغزالي نفسه ؛ عن كل نظرية أصدرناها ، معتقدين :

« أن الله أَرانا الحق حقا ، ورزقنا اتباعه ، وأَرانا الباطل باطلا ، ورزقنا اجتنابه (١) » .

(١) « منقذ ص ٩١ »

باب السابع

اعتذاران

١ - الاعتذار الأول ، وهو اعتذار غير مقبول

لأنزاع في أنه توجد اعترافات للغزالي في المنقذ - كما رأيت - هي غير مطابقة للواقع ، والغزالي حينما اعترف بها كان متأكداً أن اعترافه هذا غير صحيح .

١٥٧ - اعترافات الغزالي صادقة من الغامضة النفسية ، ولكن طبيعته

البشرية لم تمكنه من تخفيها !!

ولكن : هل يمكن أن يعنذر له في أم اعترافاته ، وهو تركه التدريس ، ورجوعه إليه ، فيقال :

إن الغزالي عندما اعترف : بأن نيته من التدريس ، كسب الجاه والشهرة . وعندما اعترف بأن رغبته عند هربه من بغداد ، هي خلوته بالشام ، واعتزاله الأهل ، والمال ، والوطن .

أقول : عندما اعترف بذلك ، كانت في الواقع هذه النية ، وتلك الرغبة ، عن صدق في إحساسه ، وإخلاص في ضميره ، وبدافع من وحى شعوره ، وإلهام من قرارة نفسه ، وكان فعلا ، يريد أن يسير السيرة الصوفية الحقة ، من زهد في الدنيا ، وترك كل العلائق تركا تاما ، والانخلاع من مشاغل هذه الحياة ، انخلاعا كاملا أكيدا .

أقول : عندما اعترف ، كان يريد فعلاً كل ذلك ، ولكن ما الغزالي إلا بشر ، بين جنبيه نفس — والنفس دائماً أماراة بالسوء — وبين ضلوعه قلب ، يحن إلى الولد ، والأهل ، والمال ، والأصحاب ، والوطن ، فلم يمكنه أن ينخلع من بشريته ، كما لم يمكنه أن يعرض عن الدنيا بسكائمه ، ويتجه إلى الله ، بل ويفنى فيه .

فرجع إلى ما كان ، وعاد إلى ما عزم على تركه رغماً عنه ، سيما أنه كما صرح : كانت نيته من التدريس ببغداد ، كسب الجاه والشهرة ، أما نيته من الدرس بنيسابور ، فهي الدعوة إلى العمل الذي به يترك الجاه والصيت . هذه نيته أولاً ، وتلك نيته ثانياً ، ولكل امرئ ما نوى .

نعم : يمكن أن يقال هذا ، ويعتذر عنه بذلك .

ولكن : هل هذا العذر مقبول ؟؟

سنرى :

هل عرف الغزالي أنه لم يمكنه أن يصل إلى غاية الشوط الذي أراده ؟ وأحس أنه عجز عن أن ينتهي إلى تلك الحالة التي ابتغها ؟ والتي عمل لأجلها ؟ هل شعر الغزالي بذلك العجز وأحسه وعرفه ؟

أو لم يشعر بأنه عجز عن الوصول إلى ما أراد ، بل تأكد أنه قد وصل إلى ما طلب ، وانتهى إلى ما ابتغى ، مع إيمانه بذلك وتحقيقه من هذا ؟ نعم : لا نزاع في أنه : إما أن يكون هذا ، أو ذاك .

١٥٨ - إحساس الغزالي بمعجزه عن الوصول إلى ما يريد ، ونقد ذلك

فإذا كانت الحالة الأولى هي التي لابسته ، أي أنه أحس عجزه عن

الوصول إلى ما يريد رغماً عنه ، فلماذا لم يصرح لنا بهذا ، سيما أنه قد عودنا ذلك قبلاً ، عندما ترك التدريس ببغداد ، معلناً ضلاله ورياءه ، وأعوجاج طريقه ؟ لماذا لم يعلنه ، ويعترف به ، سيما أنه الآن يفضي لنا بدخائل نفسه في النقد ، وهو يعلم أن الاعتراف مطهرة ، وتوبة نصوح ، ومن مظاهر القوة والإيمان !! بل لماذا صرح قائلاً : « إنه وصل ورأى أوروبا ، لا يمكن إحصاؤها ، ولا استقصاؤها » ، مما يدل على أنه انحرف في سلك للتصوفين ، وانغمس في بحر الواصلين .

لكل هذا ، نضطر إلى أن نقول : إن الغزالي لم يحس هذا المعجز ، ولم يلمس ذلك الإخفاق .

١٥٩ - - إحساس الغزالي بوصوله إلى ما يريد ، ونقد هذه النظرية

أما وقد بقيت الحالة الثانية ، وهي أن الغزالي لم يشعر بذلك المعجز ، ولا بهذا الإخفاق ، بل أحس أنه وصل إلى ما يريد ، وتأكد أنه انتهى إلى ما يطلب ، فلعلنا إلا أن نتناول تلك الحالة بالدرس والتحليل .

نعم إن تصريحات الغزالي واعتراقاته ، تؤكد لنا خطأ ذلك الزعم ، وضلال هذا الرأي .

١ - إذ نراه : عندما تصدق نيته ، وتصح عزيمته على الخروج من بغداد ، والهرب من الرياء ، يقع في الرياء عن عمد وقصد ، حينما يتظاهر بالخروج إلى الحج ، وهو يبطن في نفسه السفر إلى الشام ؟

ولو كان مقتنعاً بأن التدريس رياء وتخيل ، ما كان يمكنه أن يترك الرياء ليقع في الرياء والتحايل عمداً واختياراً .

٢ - ونراه : عندما يعزم على ترك الجاه ، وحياة التدريس ، يخاف عن تنبهه ونيقظ ، أن تألف نفسه الحياة الجديدة ، حياة الهدوء والراحة ، فلا تتيسر له معاودة الدرس والتعليم .

٣ - ونراه : عندما يترك التدريس ، لأنه تضليل ونير نافع وغير مهم ، ينيب عنه أخاه .

٤ - ونراه : عندما تعترض عليه أئمة بغداد ، بأنه كيف يترك أعلى منصب في الدين ، يقول لهم : إن ذلك مبلغكم من العلم ، فهناك :

منصب أعلى وأهلى ، هناك مناصب وألقاب . هناك مصلح القرن ، ومجدد المائة ، ومبعوث الله .

٥ - ونراه : عندما يقول : إن شرط الخلوة ، الإعراض عن المال ، والولد ، والوطن ، وعدم الاشتغال بأى شيء ، حتى قراءة القرآن ، يصرح في نفس الصفحة ، بأنه أحب المال فاستبقاه ، والأولاد فصحبهم ، والوطن فحن إليه ، والتأليف فكتب إحياءه ، والدرس فعقد حلقات الوعظ والإرشاد .

٦ - ونراه : يعلم جد العلم « أن كل هذه العلائق كانت تغير فيه وجه المراد ، وتشوش عليه صفو الخلوة » كما يقول هو نفسه .

أى أنه ، لم يمكنه أن يصل إلى ما يريد فعلاً ، وصولاً كاملاً كيداً .

٧ - ونرى : « كما يصرح » أنه يعمل كل هذا : من هرب ، وخلوة ، واعتزال ، ليسير على النهج الصوفى ، « كما كان حصله تماماً من علومهم » كما قال هو نفسه ، لا كما أحس ذلك بدافع من نفسه .

٨ - ونراه : يعرف أنه ترخص في إغضب الله ، فلم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر .

٩ - ونراه : يعرف أنه لم ينانح عن الإسلام - مع أنه صرح بأن ذلك متعين عليه ، ومحتوم لديه ، حيث لا طيب سواه - لأنه يريد أن يعيش في هدوء ، وسلام واطمئنان ، بدلا من معاداة الناس ومقاومتهم .

١٠ - ونراه : يعرف أيضا ، أنه قام إلى الأمر بالمعروف ، والمنافعة عن الإسلام ، وإلى التدريس بنيسابور ، لأن السلطان أمره أمر إلزام وتحميم .

١١ - وأخيراً : نرى الغزالي يكتب ؛ وهو يفهم ما يكتب ، ويعترف ، وهو عارف بدقائق اعترافاته ، ويقول ؛ وهو متيقظ لسكاته ، ويكتب بالعربية ، وبأسلوب جزل اللفظ مستقيم المعنى ، فلا يمكن أن يقال : إن اللفظ قد خانته ، أو أن التعبير قد جره إلى مالا يريد ، أو أنه يحمّل ألفاظه ، لا تحتمل وتطيق -

١٦٠ - استنباط هام

لكل هذا ، فنحن نعتقد بسبب هذه النقاط :

أن الغزالي يعرف : أنه لم يصل إلى ما يريد .

وأنه يؤمن : بأن كل ما فعله كان غير موصل له .

ويؤمن بأنه : لم يحس هذا الوصول .

ويؤمن بأنه : غير صادق في هذه الاعترافات المرتجلة المخترعة .

كما نعتقد نحن بأنه اضطر إليها ، فساقها متناقضة متهافة . وبأنه أراد الدفاع عن قضية ، أركانها منهارة متداعية ، بفرض صلابة هذه الأركان ، ثم فرض صحة هذه القضية ، ومن ثم ، أعلن للناس هذا الفرض ، وطلب منهم تصديقه والإيمان به .

بعد هذا : أراني مضطراً لأن أقول :

إن هذه الاعترافات :

أ - ليست باعترافات رجل ، أراد هدفاً ، ولكنه أحس العجز عن الوصول إليه ، فأعلن للناس هذا العجز ، وأبان لهم ما اكتشفه من عقبات .

ب - وليست باعترافات رجل ، أراد هدفاً ، واعتقد أنه وصل إليه ، بينما لم يصل فعلاً .

ج - ولكنها : اعترافات رجل ، أراد هدفاً ولم يصل إليه ، وعرف أنه لم يصل إليه فعلاً .

ومع هذا : فقد أراد أن يحمل الناس على التصديق بأنه وصل ، فساق الأدلة ، وأرسل الاعترافات ، من هنا ، ومن هناك ، متهافئة متخاذلة ، متنافضة متعارضة ، لا تنتج نتيجة ، ولا تنهض حجة ، ولا تصحح قضية .

ب - الاعتذار الثاني : وهو اعتذار مقبول

ولكن : هلا يمكن بالبحث والتنقيب ، والفرض والتأويل ، أن نعتز على عذر نفتخر به للغزالي ؟

١٦١ - الغزالي حجة الاسلام ، ورجل الدين ، لدى العلماء المسلمين

فالعزالي : حجة الاسلام ، وإمام للمسلمين ، ومؤلف الشريعة ، وكاتب الإحياء ، وعالم الأصول ، وعماد المتكلمين ، وهادم الفلسفة ، ومفسد الباطنيين ، وزعيم المتصوفين .

والغزالي : رجل الشريعة والحقيقة ، عالم الظاهر والباطن ، هو بين العامة محترم ، وبين الخاصة مبجل ، تأليفه في كل منزل ، وعظاته وأوراده في كل بيت ، يلهم بها لسان كل مسلم ، فهو مقدس من مسلمي السكرة الأرضية بلا منازع .

١٦٢ - الغزالي فيلسوف الاسلام ، لدى المستشرقين

هذا في العالم الإسلامي ، أما في العالم الأوربي ، أو بعبارات أدق ، عالم المستشرقين ، فهو فيلسوف الإسلام الوحيد ، وهو رجل الفكر الحر ، في ظلمات العصور الوسطى ، وهو بطل الحرية الدينية أيضاً ، وهو الرابع في الإسلام ، بعد محمد عليه السلام ، وبعد البخاري والأشعري ، كما قال زويمر « على ما أذكر » . ومن الغريب أن هذا الكتاب ، كتاب الغزالي « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذي العزة والجلال » الذي أرسل فيه اعترافاته ، والذي به أرخ حياته ، والذي فيه كشف للناس عن دخائل نفسه ، هذا الكتاب هو الذي رفعه

إلى مصاف كثير من الفلاسفة الغربيين ، « أمثال سان جوستين ، وسان تومازو ، وبسكال ، وديكارت » حينما أذاعوا مذكراتهم واعترافاتهم ، مثبتين فيها تاريخ حياتهم ، سلفرين بين سطورها عن النفس الإنسانية ، رسالة على طبيعتها ، لم يحجبها رياء ، أو دجل ، ولم يسترها نفاق ، أو تضليل .

١٦٣ - اعتراف الغزالي : قوة وإيمان

والغزالي أيضاً : هو الذى كتب فيه الكتاب ، والذى ارتفع على أكتاف دراسته ، كثير من البحوث ، والعلماء ، من القرون الوسطى إلى الآن ، وكلهم محترمون له ، مبجلون لآرائه ، مكبرون لأفكاره .

وإذا كان هناك أى نقد قد وجه إليه ، فواجهه أبداً ، لكتابته المنقذ وما يحوى من اعترافات وآراء ، لأن المستشرقين ، والباحثين من المسلمين ، ما تصوروا تاريخاً أثبت وأكد ، من تاريخ رجل فى سن الحسین ، يكتبه بخط يده ، ويرسل لك اعترافاته ، تحوى ما يشين وينقص ، فتنزل به إلى الخضيض ، كما تحوى ما يرفع ويسمو ، فتصعد به إلى أعلى الدرجات .

وعلى كلا الحالين : فهو اعتراف ، والاعتراف دائماً وأبداً ، من دلائل القوة ، وعلامات الحرية الفكرية ، والإيمان العميق .

١٦٤ - الغزالي أستاذ الفلاسفة الغربيين الأوروبيين فى العصور الوسطى

والغزالي أيضاً : هو الذى تعلمت عليه فطاحل الفلاسفة الدينيين ، الأوروبيين فى العصور الوسطى ، أمثال سان تومازو وأشباهه ، فاتخذوا آراءه حجة دعوا بها دعائم الدين المسيحي كدين ، أمام هجمات الفلاسفة ، ونظريات المتفلسفين .

١٦٥ - إذا : ماذا بقى للمسلم من رجل إذا كان الغزالي كذلك

وإذا كان الغزالي ، وهو علم الإسلام الخفيا سيوصم بهذا :

اعترافات غير صادقة ، وآراء غير مطابقة للواقع ، وهو حين يعترف ، يعلم ويتأكد ، أنه يقول ما لا يطابق الواقع ، وإنما يتحدث بما نبت فى أفكاره حين الكتابة من آراء ، ويعترف بما كان يجب أن يكون ، على أنه هو المثل الأعلى ، الذى يجب أن يحفظه له التاريخ .

إذا كان الغزالي وهو العلم ، وليس للمسلمين علم يساويه ، ينزل إلى هذا الدرك ، فماذا بقى للمسلمين بعد ذلك ؟ ! ! !

١٦٦ - كيف نعتذر للغزالي

فها ! ! انبثت عن عذر نعتذر به للغزالي .

وهيا ! ! انمصر الفكر ، ونزهف الحس ، ونصدق النظر ، مرة . بل وألف مرة ، هلنا نمتز على ما يقبله من عشرته ، ويرفعه من كبوته ، ويدفع هذا التناقض وذلك التعارض ، ولو كان عذراً لا يرضى الحق الخالص ، ولا يطعم المنطق السليم . ولكنه على الأقل ، عذر يرضى كبرياءنا ، ويدمل جرحنا ، ويبقى على أعظم رجالنا ، وقد يكون هو الحق والصواب .

نعم ، هيا بنا ! ! !

ومن آراء الغزالي ونظرياته ، نستمد العون والتوفيق .

١٦٧ - الغزالي يميز المكذب لسبب

يقول الغزالي فى الإحياء ، تحت عنوان : « بيان ما رخص فيه من الكذب » (١)

(١) د منقذ ص ١١٩ ج ٣ من الإحياء طبع ١٩٢٣ هـ بالقاهرة

« اهل أن الكذب ليس حراما لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب ، أو على غيره ... فإن أقل درجاته ، أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه ، فيكون جاهلا . . . ورب جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب المحصل لذلك الجهل ، يكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا .

قال ميمون بن مهران : « الكذب في بعض المواطن ، خير من الصدق » . . .

« يقول الغزالي أيضا » :

« بعد هذا نقول :

الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود ، يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام .

وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ودلل الغزالي ، على أن الكذب يجوز فيه الاستثناء ، فلا يكون حراما بقوله :

« والذي يدل على الاستثناء ، ما روى عن أم كلثوم :

« ما سمعت رسول الله صلى عليه وسلم ، يرخص في شيء من الكذب ،

إلا في ثلاث :

الرجل يقول القول ، يريد به الإصلاح .

والرجل يقول في الحرب .

والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها .

يقول الغزالي أيضا :

« فهذه الثلاث ، ورد بها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره .

ومما يلتحق بالنساء العبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكذب إلا بوعده ، أو وعيده ، أو تخويف كاذب ، كان ذلك مباحا .

نعم رويناه في الأخبار ، أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ، ويحاسب عليه الإنسان ، ويطلب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه أبيض بقصد الإصلاح ، وكل من أتى بكذبة ، فقد وقع في خطر الاجتهاد ، فيعلم أن المقصود الذي كذب لأجله ، هل هو أهم في الشرع من الصدق ، أم لا ؟ :

نعم ؛ إن الغزالي استدرك قائلا بعد ما تقدم : « وهذا غامض جدا ، والحزم تركه ، إلا أن يصير واجبا ، بحيث لا يجوز تركه ، كما لو أدى إلى سفك دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان .

. . .

١٦٨ — الصلة بين إباحة الغزالي للكذب ، وبين اعترافه

إلى هنا انتهى كلام الغزالي .

فهل هناك من صلة ، بين ما أجازته الغزالي من إباحة الكذب لمقصود

صحيح كإصلاح، أو تعليم صبيان، أو ما عدا ذلك مما في معناه، وبين اعترافات الغزالي في للنقد؟

نعم، إنك رأيت رأى الغزالي السابق: من إباحة الكذب في سبيل الإصلاح.

وقد رأيت أيضاً: أن اعترافات الغزالي، هي تصحيح لموقفه ودعاية لطريقه، ولطريق الصوفية الذي اعتنقه، وتسفيه لكل ما عداها من الطرق، وأنها اعترافات، قد أسدل عليها ثوب الحقيقة، وأطلق العنان في حبسها للخيال.

بعد هذا، ألا يمكننا أن نعتذر للغزالي:

بأنه حينما أراد أن ينشر ذلك بين الناس، وعند ما أراد أن يثبت طريق الصوفية، الذي آمن بأنه هو الطريق الحق، وسبيل النجاة، اخترع قصة هو محورها، وحاك رواية هو بطلها واستقى بعض فصولها مما حصل له فعلاً، وأضاف لهذه الفصول، بعض الحقائق الممتنة، وجمالك تحس بعض الشكوك، وتلصق شتى المواجهس، وقد برزحت حين الكتابة فقط.

وهي أشبه ما تكون « بالرتوش » والتزويق، التي تضيفها ريشة المصور على الصورة التي ينقلها عن الطبيعة، فيجمع فيها بين الحقيقة والخيال، ويقرن فيها الواقع بالمثال.

فعل الغزالي كل هذا: ليحبك القصة، ويشيع فيها الحياة، لتقوى على النضال، فتفتح طريقاً لإقناعك، وتحملك على أن تسير على ضوئها، وتنهج النهج الذي رسمته، وتخطو الخطوات التي أملتها.

وبدلاً من أن يطبك قصة مخترعة من أساليبها، بطلها وهمي، وحوادثها لم توجد أصلاً، إلا في عالم الخيال، كقصة حتى بن يقظان مثلاً. أعطاك قصة هو بطلها، وصاحب حوادثها.

١٦٩ - الغاية نهر الوسيطة، مدارم الضرر مفقوداً، ومدارم المقصود حسناً نعم: وإذا كان قد كذب في هذه القصة، فما كذب على أحد، وإذا كان قد قال غير الحق. فما ضر إنساناً، لأن الكذب جريمة لما يتبعه من أثر، ولما يتلوه من نتائج، وكما قال الغزالي نفسه: « هو حرام لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ».

أما هنا، وفي هذه الاعترافات، فهو يكذب ملصقاً الكذب بنفسه لا بالناس ..

ونتيجة كذبه لن تضر أحداً. ولن توقع أحداً في شر ... أو تأخذ بيد أي إنسان إلى تملسكة، أو تنحدر به إلى ضلال.

بل سنسير بالناس إلى الإرشاد والإصلاح، أو على الأقل، هو يكذب ليدافع عن نفسه، وليصحح موقفه، ليكون مثلاً يحتذى، ونموذجاً يفتقد. فهي على كل حال. قصة مخترعة، قصة كما قلت أسندتها لنفسه، وفيها بعض الحقائق الواقعية، وبعض الحقائق المثالية.

وهدفه من ذلك: الإرشاد والتعالم، وغرضه من هذا: الإصلاح والتهذيب.

١٧٠ - سبب تقدير هذا الاعتذار

ولكن ما قيمة هذا الاعتذار؟

ولأى سبب سقت أنا هذا الرأي ؟

نعم : هذا رأي أقوله فقط ، لأدافع به عن الغزالي ، واعتذر به عنه ، وقد يقنع هو به ، كما قد يقنع به بعض الناس .

ولو أنه قد لا يقنع كثيراً من المفكرين الأحرار والفلاسفة الأخيار الأطهار ، الذين لا يخشون في الحق لومة لائم ، والذي يريد الغزالي أن نخرطه في سلوكهم ، والذي يريد كثير من مُبْحَثِ المسلمين والمستشرقين ، وضعه في مصافهم .

وإذا كنت قد أجهدت نفسي في نقد هذه الاعترافات ، وتحليلها وإرجاعها إلى أصلها ، وكددت الفكر ، وعصرت الذهن ، حتى أثبت أنها اعترافات لاحقيقة لها ، وأن تاريخ الغزالي الفكري والنفسي - كما حكاه هو نفسه في المنقذ - تاريخ غير مطابق للواقع .

إذا كنت فعلت كل هذا . فلماذا سقت هذا الاعتذار إذا ؟

نعم ؛ إنني اعتذرت بذلك للغزالي ، وقد مت بين يدي اعترافاته هذا المخرج ، حتى لا يتعارض الغزالي مع نفسه ، وحتى لا ينزل من عرشه الذي بنى على مدى القرون والأجيال ، وحتى لا توجه إليه مهام النقد والتجريح ، وحتى لا يقال :

إنه قال اعترافات ؛ وهي غير صحيحة أصلاً ، وبث بين أيدينا تاريخه ، وهو غير مطابق للواقع بتاتاً .

لأنه في الواقع : ما قال لنا تاريخنا ، وما حكى إلينا اعترافات وإعلاء

قال : قصة ؛ ألبسها ثوب الحقيقة ، وحكى اعترافات ؛ أسدل عليها لباس الوقع .

فإذا : الغزالي على هذا النحو والاعتبار ؛ باق بكرامته ، وباقية معه الثقة به ، والاطمئنان إلى أقواله .

١٧١ - وماذا بقي إذاً ، بعد هذا الاعتذار ؟

نعم : إن هذا اعتذار يبقى على الغزالي ، كفكره خلق الإسلام ، ونظر البحوث .

ولسكن الذي لا شك فيه ، أنه مهما أولنا ، وخرّجنا واعتذرنا فقد ثبت : أن هذه الاعترافات : - اعترافات الغزالي - غير صحيحة في جماتها .

وأن هذا التاريخ : - تاريخ الغزالي - الذي قصه في المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى النزة والجلال ، غير مطابق للواقع في مجموعه .

وأن هذا الكتاب : - كتاب المنقذ - لن يصبح بعد اليوم ، مصدرراً « Fonte » من مصادر تاريخ الغزالي الفكري ، ولا منبعاً تسيل منه حقائق تطوره العقلي ، والعلمي ، والنفسي ، وأنتا عندما نورخ له ؛ يجب أن نبحت عن مصدر آخر ، نستقي منه كل ما نريد .

١٧٢ - وما قيمة المنقذ إذاً ، بعد أنه يبقى هذا الاعتذار للغزالي

كرامته والثقة به ؟

وما قيمة المنقذ إذاً ، بعد هذا ؟

نعم ؛ إن المنقذ يصبح بعد هذا الإسفار ، وذلك الإيضاح ، ولما

يحمي من اعترافات ثنائها الغزالي ، وأرسلها ليقنعنا بمطابقتها للواقع .

يصبح المنقذ جملة لا تفصيلا ، شعاعا من الأشعة التي توضح لنا الغزالي ونفسيته ، وضياء يهدينا إلى الفكرة التي يجب أن نكونها عن الغزالي وعقليته :

كيف جاهد وجالد ؟

أساليبه ووسائله ؟

أهدافه وغاياته ؟

وهل الغاية تبرر الوسيلة ؟

أو الوسيلة والغاية جزء لا يتجزأ ؟

... وهل وهل ... ؟؟

١٧٣ — أثر هذا البحث

إذا فما هو أثر هذا البحث ؟

نعم بعد هذا كله ، يمكننا أن نجعل أثر هذا البحث ، وأهداف تلك المعجالة فيما يأتي :

أولا — المنقذ ليس بتاريخ حقيقي للغزالي

إن « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال » وما فيه ، ليس بتاريخ حقيقى لتدرج الغزالي الفكرى ، ولتطوره العقلى والنفسى ، ولن يعتبر بعد اليوم مصدرا لذلك .

ثانيا — اعترافات الغزالي فى المنقذ هي مثالية

وأن الاعترافات التي سجلها بين صفحات المنقذ ، ليست باعترافات صادقة صريحة ، مطابقة للواقع ، وإنما هي اعترافات مثالية ، كان يتمنى الغزالي أن تكون حياته على شاكلتها .

ثالثا — تاريخ الغزالي فى المنقذ هو قصة ، وأبو حامد بطلها

ولهذا فقد تكون قصة الغزالي ، التي قصها فى المنقذ عن تطوره العقلى والنفسى ، حكاية المقصود منها الإرشاد والإقناذ ، ونشر أسلوب فكرى توجيهى ، يرى الغزالي أنه منقذ للناس من الضلال ، وموصلهم إلى ذى العزة والجلال ، أما بطل هذه القصة : فهو الغزالي نفسه .

أما حقائقها : ففيها الواقع الذى حصل ، وفيها المثالي ، الذى كان يتمنى الغزالي أن يحصل .

رابعا — على المستشرقين وغيرهم أن يراجعوا ما كتبوا ، فقد ينقضوا ما أبرموا .

ولهذا يجب على المستشرقين من الأوربيين ، والباحث من المسلمين ، الذين اعتمدوا على المنقذ من الضلال ، فى تاريخ الغزالي ، أن يراجعوا ما كتبوا ، فقد ينقضوا ما أبرموا ، ويحلوا ما عقدوا .

أمثال :

مكدونالد — D. B. Macdonald ، آسين بلاسيموس (١) —
N. Asin Palacios ، كاراديفو — Carra de Vaux ، جولدم تسيهر —

(١) وهذا هو المستشرق الوحيد ، الذى وجه إلى الغزالي بعض سهام النقد والتشكيك ، فى كتبه التي كتبها عنه باللغة الأسبانية .

Gold. Ziher ، برانتل — Prantl ، نيكلسون — Nicholson ، براون —
 Brown ، ماكس هورتى — M. Horlen ، دي بور — T. J. de Beer ،
 أو برمان — Obermann ، شمولدر — Schmoldera ، باديبه . دي مينار —
 B. de Maynard ، نالينو — Nallino . وبروكلمان ، وماسينيون ، وغيرهم .
 هذا إذا كانوا أحياء ، أما إذا كانوا أمواتاً ، فعلى تلامذتهم ، وقراء
 كتبهم ، أن يضعوا هذا تحت أنظارهم .

١٧٤ — مقدمات ونتائج

أول شيء يلفت النظر في هذه الرسالة ، أنها اتخذت الشكل الرياضى ، أى
 مقدمات ونتائج .

وكذلك اتخذت الشكل الدرامى ، فهى نقاط بسيطة شرحت ، وأسئلة
 أوردت أجيب عليها .

وقد أخذت الرسالة هذين الهدفين أساساً لها ، حتى لا يضيع وقت العالم
 المتخصص ، وحتى تأخذ بيد الطالب الشاذ إلى مناهل العلم ، فتسهل عليه
 التحصيل ، وتجريه على النقد والبحث ، فهى كقنطرة بين الدراسة المدرسية ،
 وبين البحوث الجامعية .

لأن هناك بحوثاً ورسائل كثيرة ، مع أنها تحوى العلم والعلم الحق ، ما كان
 أسلوبها المستفيض ، باعثاً للعلماء الحريصين على أوقاتهم ، ولانتائجها المدفونة
 المبعثرة ، مشجعة للطلاب الشادين .

١٧٥ - إغفالها الاستشهادات وبعدها عن الاطراف

كذلك كانت الرسالة صغيرة الحجم ، غفلا من الاستشهادات التى لا لزوم
 لها ، بعيدة عن البحوث التاريخية غير المهمة ، التى أولى ما يكون بها بطون
 الكتب ، وصفحات التاريخ .

وذلك : حتى لا يضيع وقت القارىء فالزمان زمان الحرب الخاطفة ، والدقيقة الآن من حياة الإنسان ؛ بل من حياة الإنسانية ، تعد بآلاف السنين .

وإنما الذى يمكن أن أقوله بكل جرأة و يقين ، أن جميع أفكارها مبتكرة (Originales) وجميع ماصوبت نحوه ، لم يسبقنى إلى التصويب إليه أحد ، مع كثرة الرواد ، ووفرة الرماة .

أما لليزة الرابعة والأخيرة والهامة ، فهي الجرأة والقوة ، نعم ؛ الجرأة فى معانيها ، وفى ألفاظها .

١٧٦ - جرأة معانيها

أما قوة معانيها ، وجرأة أفكارها ، فلا شئ فى ذلك مادامت المقدمات صحيحة ، والمراجع المستقتاة منها هذه المقدمات أصح ، ومادامت الأمانة العلمية ، حية متيقظة بين العقل والضمير .

١٧٧ - جرأة ألفاظها

أما عن ألفاظها ، فقد كان فى الإمكان أن تكون أهدأ من ذلك حقاً ، وهذا هو ما وجهه إلى أستاذ كبير — كان لى المنزل الأعلى ، وسيظل كذلك — لأنه يرى أن البعد عن هذا العنف اللفظى الشكلى ، أليق بما يكون بالبحث العلمى ، وبطبيعة العلماء .

١٧٨ - ضرورة لادبرتها

نعم لانزعاج فى أن ذلك صحيح ! .

ولكن : ماذا أفعل أمام هاته المعانى التحليلية ، وتلك النقدرات العلمية ، فهي عنيفة وقوية ؟

ولهذا فلا بد أن تكون تلك الآثواب التى تلبسها هاته المعانى ، وتلك الرسوم التى تحدّد هذه النقدرات ، أقوى وأعنف . حتى تطيقها فلا تضيق بها ، وحتى تتحملها فلا تهلّل عنها .

ماذا أفعل أمام هذه الفسكرة — فكرة صحة هذه الاعترافات وقداستها — التى أسدل عليها مر السنين ، وكر القرون ، وقوة ، ومنعة ، وصلادة ؟

هذه القوة وتلك المنعة وهاته الصلادة ، لا يمكن أن توجه إليها سهام النقد والتشكيك ، أو تسلط عليها أضواء التحليل والتفنيد ، بعمان ضعيفة ، وبألفاظ أضعف ، فتتقض من أساسها فى لحظات وثوان (١) .

ولهذا وجب أن تكون تلك المعانى قوية ، وهاته الألفاظ أقوى ، متكافئة متشاكلة مع المنقود ، هذا إن لم تكن تفوقه قوةً وعنفاً .

وذلك أشبه ما يكون ، بسكتة جبلية ، زادت بها الأيام والليالى « صخورة » وصلادة ، فأزالت عوائل التعرية ما هشم منها ، ولم يبق إلا الصلد المتماصك .

(١) لأنى على ما أعتمد لم أعثر على أحد من البحات والمستشرقين ، قد نقد هذه الاعترافات على النحو الذى نقدتها بنائاً ، حتى يمكن أن يقال : إن هذا النقد قد بدى فيه من زمن بعيد ، فتكاثر عليه اللقنات ، واختلف إليه الدارسون .

فهذه السكتة : لا يمكن هدمها إلا بمول يده من « الشوم والزان » ،
ونصله من الفولاذ ، والساعد الذي يمسكه ، كأنه قد من ذلك الصخر .

أما الضربة : فيجب أن تتناسب مع الهدف ، قوية ، تصطدم فتفتت ،
عنيفة ، ترتطم فتأتى على كل ما وقف في طريقها .

وإلا كنا بين الحقيقة والمثال :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

من أعمال المؤلف

من أعمال المؤلف

١ - المجموعة الوفية ، في فقه السادة الشافعية : وهو جزئان أحدهما في

العبادات ، وثانيهما في المعاملات ، وقد جاء بمقدمة الطبعة العاشرة :

د إن هناك فرقا هائلا بين الحينين : حين الطبعة الأولى - وقد كانت في

فبراير سنة ١٩٢٥ وكانت سني حوالى السادسة عشرة ، وكنت تلميذاً بالسنة

الأولى بمعهد الزقازيق ، وكان ذلك أول كتاب ألفته وطبعته - وحين الطبعة

العاشرة سنة ١٩٤٨ وسني قد تخطى الخامسة والثلاثين وقد حصلت على أكبر

درجة علمية في الفلسفة وفي التربية ، واشتغلت بالتدريس في مدارس المعلمين ،

وكلية دار العلوم و . . . (١)

٢ - الفكر الفلسفي للغزالي . La pensée Philosophique d. Al Gazali.

وهو البحث الذي حصل به المؤلف على درجة دكتور في الفلسفة من

جامعة روماسنة ١٩٢٩ وبعد أن وافقت الوزارة على ابتعائه إليها وهو مدرس

بمدارسها الأميرية ، وقد حصل على أكبر تقدير فيها ، وهو درجات ١١٠ من

١١٠ حيث أعطاه الأساتذة الممتحنون المناقشون - وكان عدد من أحد عشر

أستاذاً - النهاية الكبرى لكل منهم .

(١) ولد المؤلف في ٨ أكتوبر سنة ١٩٠٨ وحصل على الشهادة الأولية من المعاهد

الدينية سنة ١٩٢٥ وعلى كفاءة المعلمين وكفاءة المعاهد الدينية وكفاءة دار العلوم سنة

١٩٢٧ وعلى بكالوريوس تجيزية دار العلوم سنة ١٩٢٩ وعلى دبلوم دار العلوم العليا

سنة ١٩٣٣ .

وقد طبع بالفرنسية وبالإيطالية سنة ١٩٣٧ وبالعربية سنة ١٩٤٨ الطبعة الأولى، وسنة ١٩٥٥ الطبعة الثانية، وهو أول كتاب في العالم العربي يبرز العناصر الأساسية لفلسفة الإسلام السياسية كنظام للحكم الصالح لكل زمان ومكان، ويتلاءم مع أية نظرية سياسية في صالح للشعوب والأفراد، وقد جاء بمقدسته حريفاً:

إن هذا النظام السياسي، هو الذي بعث الدولة العربية والإمبراطورية الإسلامية، وأنتا إذا أنكرا هذا النظام على الإسلام لحرره ومثاليته، فإن الإسلام الحق ينكرنا كذلك، وأن المسلمين سيظلون هكذا، منقطعهم غباء، ودولتهم غباء، إلى أن يؤمنوا، بأن طريق نعمهم، هو أن يتعرفوا الفلسفة السياسية للإسلام، فتستجيب لأهدافها نبضات قلوبهم، وبأن طريق تحريرهم ووحدتهم هو أن يصارعوا بالوسائل العلمية العملية لإنهاض دولتهم، فيريقوا في سبيلها دمائهم، وبأنه هنا، وهنا فقط، يمكن أن يعود الإسلام كما كان، إمبراطورية تصفق على جنباتها أمواج المحيطين، المهادى شرقاً، والإطلنطى غرباً، وبأنه بدون تحقيق هذه الأهداف، أهداف الفلسفة السياسية للإسلام، وبغير استعمال تلك الوسائل، وسائل ثورة الإسلام، فلن يكون للإسلام دولة قط، ولن تتوفر للعرب شوكة أبداً» (٢)

٤ — أهداف الفلسفة الإسلامية: وهو يقدم لأول مرة في التاريخ الإسلامي،

(١) وقدمي المؤلف بسبب هذا الكتاب في السجن سنة ١٩٤٨ لأنه هاجم فيه الحكم الملكي مقررأ أن ملوكه وحكامه كعماته الانجليز، عصيانهم واجب، واغتيالهم فرض هبني، كما رسم فيه طريق الثورة فأكد شرعيتها بل حتميتها، وبذلك كان هذا الكتاب هو الأول الذي صهرت في بنوده الثمانين الثورة التحريرية المصرية العربية.

الفلسفة الإسلامية كعلم له أدواره وتطوراته ومدارسه، مع إبراز كل مدرسه وربطها بأسانئتها وبمنهجها وبأهدافها، ومع بيان تدرج هذه الفلسفة من نشأتها إلى ازدهارها، ثم إلى ضعفها وخفوتها، حتى عصورنا هذه.

• — التصوف الإسلامي بين الفلسفة والدين: وهو بحث يقدم لأول مرة في التاريخ العربي، التصوف الإسلامي كعلم إسلامي متكامل، له نشأته وتطوراته، وأساتذته كل طور حتى عصرنا هذا، وقد برزت في نهاية الكتاب روح المؤلف التي تدعو إلى الجهاد وطرده المستعمرين لدول الإسلام عندما قال: إن الاستعمار خير منه الكفر بالله، والإيمان بالشيطان، فما اجتمع في قلب مسلم عبودية لخالق وطاعة لمخلوق، وما استحق أن يسمى مسلماً من أسلم حريته لغير الله.

٦ — نظرية السببية بين مفكرى الإسلام وأوروبا Principio della Causalita وهو بحث فلسفي مقارن، نوقشت فيه الآراء الفلسفية التي دارت حول السبب الأول والمخلوق الأول... كما برز فيه رأى الإسلام، مع صراحة في البحث، ودقة في النتائج.

٧ — حاضر يافندم: وهي محاضرات في التربية وعلم النفس، ألقاها المؤلف على طلبة السلكية الحربية، وعلى الطلبة الجامعيين، عندما قاد طلبته، وهو أستاذ لهم، بكلية دار العلوم سنة ١٩٤٢ للحصول على درجة ضابط احتياطي وفلا حصل عليها، وكان هذا العمل منه نموذجاً للوجه الوطنية العالية إذ كان يمارس معهم تدريباتهم العسكرية كطالب مثلهم سواء بسواء.

وعندما دق ناقوس الجهاد عند إغارة الفرنسيين والإنجليز والإسرائيليين

نعم وإلى الوطن ثانياً : هذا الوطن العربي ، مركز الوحدة العربية الشاملة
الذى حمل أجدادنا لسكانه الأقدمين ، الفتح باليمن والقرآن بالشمال ، فذلوا
العقبان بسيوفهم بل بدمائهم ، ونشروا الدين بعلومهم بل بقلوبهم .

نعم وإلى الأنصار ثالثاً : نعم أيها الأنصار ، وسنكون والله كما كان آباؤنا
الأولون ، خدماً لهذا الدين ، ووقوداً لذلك الوطن العربي الكبير ، وجنوداً
فدائيين للوحدة الإسلامية ، وقادة أوفياء لمستقبل العرب المجيد ، حتى ينادى
المسلمون بنا كما قال فينا نبينا :

« والله لو سلك الناس شعباً - طريقاً - وسلك الأنصار شعباً ، سلك
شعب الأنصار » (١)

١٠ - المكتبة المدرسية : في أربعة أجزاء وقد طبعت سنة ١٩٥٣ فارسي
فيها القواعد العلمية لمكتبات المدارس ، والمكتبة هي المدرسة الدائمة للتلميذ
يعد تركه المدرسة .

١١ - التصنيف العشري العربي المعدل الموضوعي والمهجاني :

The Arabic Decimal classification and its alphabetical.

ولأول مرة في تاريخ المكتبة العربية يتم تصنيف كتب المكتبات المدرسية

(١) وقد ظلت المجلة تصدر حتى الآن ، وهي لسان حال اتحاد عرب الأنصار الاجتماعي
المسجل بوزارة الشؤون الاجتماعية برقم ٩١٧ سنة ١٩٦٧ القاهرة - وقد أسسه المؤلف
سنة ١٩٣٢ ليجد به عائلات الأنصار فكون أهم تحت لوائه ٦٠٠ لجنة تضم حوالي ٦٠٠
ألف ينتسبون إلى قبائل عرب الأنصار الأقدمين ، ولهم دار الإنصار بالحلمية الجديدة بالقاهرة
وبها مؤسساتهم الخيرية ، وفيها مقر اجتماعاتهم السنوية و...

على مصر سنة ١٩٥٦ أختير كضابط احتياطي قائداً لمسكر كلية الآداب بجامعة
عين شمس ثم أركان حرب لواء الجامعات المساعد ، ثم قائداً للمكتبة التي كونها
من طلبة الجامعة ليعسكر بهم في مسطرد ، وهي الخط الثاني للمعركة بور سعيد .

٨ - هجرة الرسول إلى عرب الأنصار : وفيه يقدم المؤلف تاريخ الأنصار
قبل بعثة النبي بقرنين من الزمان ، كما يبين دورهم الهام في تأسيس الدولة الإسلامية
ونشر الرسالة المحمدية ، على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ، مع ربط نسب
الأنصار الموجودين حالياً والمؤلف من أحفادهم ، في البلاد المصرية والعربية
الأخرى بهؤلاء الأنصار الأقدمين ، وقد صدرت له كتب أخرى في هذا الموضوع
مثل : عرب الأنصار في مصر ، الأنصار والإسلام ، شعراء الأنصار

٩ - جريدة الأنصار : وقد صدر المؤلف العدد الأول منها سنة ١٩٤٦
بمقال عنوانه : بدء وهمد ، أما البدء فباسم الله ، وأما الهمد ، فإلى الله أولاً ،
وإلى الوطن ثانياً ، وإلى الأنصار ثالثاً .

نعم إلى الله أولاً : حيث نعلن كلمته ، ونعلن رأيت به ويرقه ، ذلك البريق (١)
الذي كان حمله وقفنا على أجدادنا الأنصار ، يوم كان الإسلام جهاداً وقتالاً ،
وحين كان الدين المحمدي فدائية ونضالاً ، وإذا كان آباؤنا الأقدمون هم الوحيدون
الذين أسلموا طواعية واختياراً ، فأووا محمداً ونصروه ، حين فر من أهله بدمه
وحين أزور عنه العرب قاطبة ، فنحن أبناؤهم قد ورثنا هذا الدين ، وورثنا
معه الغيرة في الدفاع عنه ، والاهبة على حمايته

(١) ولذلك سمي حامل البريق بالبريق الذي قلبت تصحيحاً فنطقت البقري سهيلاً فنطق
كما سميت قبيلته بالبريقية التي قلبت تصحيحاً أيضاً لسهولة نطقها فأصبحت البقرية .

ومكتبات الجامعة الشعبية طبقاً لهذا التصنيف . وقد قام المؤلف بصفته مديراً للمكتبات الشعبية ومكتبات المدارس بوزارة التربية والتعليم ، بعمل دراسات للأستاذة المدرسين وأثناء المكتبات الشعبية سنة ١٩٥٤ لتدريبهم على هذا التصنيف الذي كان أول من طبقه على المكتبة العربية حيث أنه هو الوسيلة الوحيدة لربط الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية وبهذا يمكن بسهولة وضع الأساس السليم لخلق الدولة العلمية التكنولوجية .

١٢ — مدرسة الأنصار التجريبية : وقد أسسها المؤلف سنة ١٩٥٧ ليخلق في فصولها التجربة الرائدة التي خرجت — بعد جهاد تربوي وكفاح علمي طوال عشر سنوات — بأسهل طريقة لتعليم للبتدئين العناصر الأساسية للقراءة والكتابة والتفكير في ٢٨ يوماً بالطريقة الكلية : كلية المعنى وكاملة المراحل على أسس علمية وتربوية وفسولوجية وسيكولوجية ، استضاء فيها بكل ما سبقه من طرق وتجارب عربية وإفريقية .

وقد كتبت عنها الصحف صفحات كاملة مشيدة بنتائجها (١) .

١٣ — المؤسسات الخيرية : بإكوة مركز ديرب نجم شرقية ، وقد شيدتها للأولف سنة ١٩٦٦ لتكون رائدة وموجهة إلى أقوم طريق ديني ، وأنفع سبيل دنيوي ، ويكتفى أن ننقل هنا ما كتبه جريدة الجمهورية في عددها مؤرخ

(١) الأهرام في ٢٨ / ٤ / ١٩٦٣ — المساء في ٢٤ / ٤ / ١٩٦٣ و ١٩ / ٥ / ١٩٦٣ الجمهورية في ٢٦ / ٣ / ١٩٦٣ — الجيل في ٢٨ / ٥ / ١٩٦٢ — الشباب العربي في ١٨ / ١٢ / ١٩٦٨ — والأخبار في ٢٠ / ١١ / ١٩٦٨ — والأهرام في ٢٩ / ٩ / ١٩٦٨ والجمهورية في ٢٩ / ١ / ١٩٦٨ .



المؤسسات الخيرية
(أنظر ص ٧ ملحق)



٢٠ / ٤ / ١٩٧١ تحت عنوان : بيت ثقافة الأنصارى فى قرية إكوة شرفية ،

مسجد للصلاة والثقافة والفن من نوع جديد :

الفلاح المزارع .. مفتش التربية والتعليم الذى أحيل إلى اللعاش منذ ثلاث سنوات .. الحائز على رسالة الدكتوراه فى الفكر الفلسفى عند الإمام الغزالى من جامعة روما .. الضابط الاحتياطى الذى قاد طلبته وهو مدرس بكلية دار العلوم أيام العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ .. قائد معسكر كلية الآداب بجامعة عين شمس وأركان حرب لواء الجامعات والأزهر على الخط الثانى للجبهة ، صاحب المؤلفات التربوية والدينية والفلسفية الثمانية عشر ، للزائف بعضها بالفرنسية والإيطالية والإنجليزية .. للمواطن الفلاح الذى يزرع الآن أرضه بنفسه - منح هذا الأسبوع قريته مستقط رأسه التى أنجبته قرية - إكوة - مركز ديرب نجم بمحافظة الشرقية وسام تكريم وإعزاز واعتراف بالجميل ..

الوسام .. ليس قطعة معدنية فضية أو ذهبية عظيمة القيمة معنويا .. وإنما كما تقول رسالته التى يمث بها إلى وكيل وزارة الثقافة لشتون الثقافة الجماهيرية عبارة عن بيت ثقافة من نوع جديد .. تكلف أكثر من عشرة آلاف جنيه ويضم مسجداً .. ومضيفة وقاعة محاضرات وعروضا سينمائية، ومكتبة .. ومسرحاً صيفياً ومدرسة لتحفيظ القرآن الكريم .. وتجويده ..

حوار تم بين لجنة الثقافة الجماهيرية - التى أوفدها وكيل الوزارة إلى قرية إكوة - وبين الدكتور عبد الدايم أبو العطا الأنصارى للتبرع ببيت الثقافة ، وبين جمع كبير من فلاحها عند معاينة البيت الثقافى الجديد تمهيداً لاستلامه ، وتحديد إمكانات تشغيله ، ثم فوجئت اللجنة بتداخل صالة المسجد ومحراب الصلاة مع امتداد مساحة قاعة المحاضرات والمروض السينمائية ..

١٤ - جائزة علمية سنوية : باسم المؤلف مقدارها ١٠٠٠ جنيه مصري
اشترى بها شهادة استثمار باسم كلية طب جامعة القاهرة يدفع عائدها السنوى
وقدره ٥٠ جنيهاً مصرياً إلى الطالب الذى يحصل على أكبر مجموع في درجات
قسم الجراحة بالبكالوريوس (١) .

١٥ - جائزة علمية سنوية : أيضاً باسم المؤلف مقدارها ١٠٠٠ جنيه مصري
اشترى بها شهادة استثمار يمنح عائدها السنوى وهو ٥٠ جنيهاً إلى الطالب الذى
يحصل على درجة الدكتوراه أو الماجستير في الفلسفة الإسلامية والتاريخ
الإسلامى من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، ويدور موضوعها حول العناصر
الثقافية المؤثرة في كتيبه : اعترافات الغزالي - أهداف الفلسفة الإسلامية -
الفلسفة السياسية للإسلام - التصوف الإسلامى - هجرة الرسول إلى عرب
الأنصار .

لأن هذه المكتبة بالذات تحاول بعث الإسلام الصحيح وهو الوسيلة
الوحيدة لارجاع الوحدة والقوة إلى العالم الإسلامى .

١٦ - جائزة علمية سنوية : باسم المؤلف أيضاً مقدارها ١٠٠٠ جنيه مصري
اشترى بها شهادة استثمار يمنح عائدها السنوى وهو ٥٠ جنيهاً إلى الطالب بقسم
الدراسات العليا الذى يحصل على درجة الدكتوراه أو الماجستير من كلية التربية
بجامعة عين شمس ويدور موضوعها حول : أفضل الطرق لتعليم المبتدئين القراءة .

(١) وقد اختار المؤلف قسم جراحة طب القاهرة بالذات لأن فيه تخرج ولداً الدكتور
نادر والدكتور قيس وقد أصبحا مدرسين للجراحة بالسكينة

حوار . . حول العبادة وقداصة مكانها ، ورسالة الثقافة والفن . . حول
نظرة الجمهور من سكان الريف لوجود قاعة المحاضرات والعرض السينمائي
والمكتبة بروادها من الأطفال والكبار ومكتب مدير البيت وزواره في مكان
واحد لا تفصل صالته الكبيرة بين منبر الصلاة ومكان المصلين وقاعة المحاضرات
إلا جدار رقيق بارتفاع نصف متر ، هل يمكن أن يتقبل جمهور المصلين في القرية
أن تقام فريضة الصلاة في نفس المكان الذى تاتي فيه المحاضرات ليلاً في الفن
والعلم والأدب والصحة والتاريخ . . كما تعرض أيضاً فيه الأفلام السينمائية الثقافية
والدراسية . . كيف . . . ثم يقام أيضاً خلف حائط صالة للمسجد في فضاء تابع
لبيت الثقافة مساحة ربع فدان مسرح صيفي تعرض عليه مسرحيات وعروض
سينمائية ورقص شعبي . . .

يبدأ الحوار هادئاً . . ويمتد . . تسخن حرارته لكن جميع الآراء
تكون في جانب تأييد وجود بيت الثقافة الجديد على هذه الصورة . . لا مانع
من وجود العبادة والثقافة والفن في مكان واحد ، لا أحد يعترض . . كلها
مقدسات . .

الذى بقى أن يعرف عن بيت ثقافة - إكروا - الجديد . . الذى أنشأه
الدكتور الأنصارى على نفقته الخاصة هدية لقرينته

أنه اشترط مقابل تسليم بيت الثقافة للثقافة الجماهيرية وقيامه بتأنيته وإنشاء
للمسرح الصيفي خلفه عو أن يسمى « بيت ثقافة الأنصار » نسبة إلى أجداده
كأحد للتنسبين إلى قبيلة الأنصار التي ناصرت الرسول صلى الله عليه وسلم
في بداية الدعوة المحمدية ، وكرئيس لائتلاف جمعيات الأنصار في الجمهورية
العربية للتحدة وقد وافق وكيل الوزارة على إطلاق اسم الدكتور الأنصارى
على البيت الجديد ، والإسراع بافتتاحه لاوله نشاطاته الدينية والثقافية والفنية

والكتابة والتفكير صفاراً أم كباراً ، عرباً أم أجنب ، وذلك على النحو الذى شرحه للمؤلف فى بحونه الآتية :

١ - اللوحات وقدرها ٨٤ لوحة فلوسكاب بكل لوحة : الصورة والكلمة والجملة وتثبت كلها على حائط فصل الدراسة .

٢ - بحث : نحو فلسفة تربوية مجربة لتعليم المبتدئين القراءة والكتابة والتفكير بالطريقة السككية : كلية المعنى وكاملة المراحل .

٣ - بحث : ملاحظات لجنة تخطيط الوزارة على طريقة الأنصار وتعليق المدرسة على هذه الملاحظات .

٤ - كتاب : مفتاح القراءة والكتابة . للصغار .

٥ - كتاب : مفتاح القراءة والكتابة . للكبار .

٦ - The key for reading and writing Arabic language

٧ - La clé pour lire et écrire L'arabe

٨ - بحث : كيف نكافح الأمية فى المدرسة الابتدائية .

وكيف نجعل من المرحلة الابتدائية والاعدادية مرحلة إجبارية دون إرهاق للميزانية .

وكيف نضع الأساس للدولة العلمية التكنولوجية .

٩ - بحث : كيف نكافح أمية الشعب العربى مجانا وفى ثلاثة شهور .

١٠ - اقتراحات : لتعديل بعض مواد قانون التعليم الابتدائى ليضع

الخطوط الأساسية للدولة العلمية التكنولوجية .

وقد اختار صاحب الجائزة هذا الموضوع بالذات ، لأنه يؤمن بأن سهولة تعليم اللغة العربية للشعوب العربية والإسلامية ، فى فصول مدارسها الابتدائية ، وفى فصول مكاتبة الأمية ، هى أقوى الوسائل جذباً لشعوب الوحدة العربية والإسلامية والإفريقية ، هذه الوحدة وهذا الاتحاد لهذه الدول ، أن يدوم ويخلد إلى الأبد إلا إذا أسس على رباط من اللغة والثقافة والفكر ، وحينئذ لن يفصمه بتر أو انفصال ، لأنه سيكون إذاً قد أحكت رباطه لغة القرآن ، وباركته كلمة الله .

١٦ - جائزة علمية سنوية : أيضاً قدرها ٢٠٠٠ جنيهاً ، عربياً يمنح ريعها السنوى وقدره ١٠٠ جنيه إلى الباحث أو الكاتب أو الطالب الجامعى الذى يحصل على درجة الدكتوراه أو الماجستير من أية جامعة بلد عربى أو إسلامى أو أجنبى ، ويدور موضوعها حول :

ما هو أصلح نظام للحكم الإسلامى الصحيح الذى يعمد لدول العرب والإسلام قوتها ووحدتها ، وذلك على غرار عناصر البحث الموجودة بكتاب « الفلسفة السياسية للإسلام » للمؤلف والذى سبق ذكره .

وعلى أن يقرر منحها مجلس الجامعة الأزهرية ، بعد أن ينشر عنها إعلاناً بذلك يذاع سنوياً على جامعات العالمين العربى والإسلامى .

١٨ - مشروع مكاتبة الأمية على مستوى اتحاد الجمهوريات العربية : وإن المؤلف ليطمح أن يوفقه الله فيختم حياته بأن يتحمل المسئولية العلمية والفنية والمالية لتنفيذ هذا المشروع ، فيصل به إلى النتائج المرجوة منه ، بدلا من هذا هذا التخطيط الذى ظللنا نرزع تحته ٥٠ عاماً ، وبعد أن تدخلت فيه الآن .

الأصابع الأجنبية والدولار الأمريكي، والذي تسرب إلينا من أبهاء سرس اللبان،
تحت ستار الخبرة الفنية والعلم التجريبي نارة، ومن لجان اليونسكو الأمي نارة
ثانية، ومن يونسكو جامعة الدول العربية نارة ثالثة . . .

فتغلب لب ضعاف العقول بملايين الدولارات، لتنفيذ التعليم الوظيفي
والفني والحرفي للكبار III حتى يتمكن خبراءهم ورجال مخبراتهم من التسلل إلى
عمال مصانعنا، ومجمعات فلاحينا . يدسون ويتعرفون ويخبرون، فيعمقون
ثورتنا، ويعطلون مسيرتنا . ولا يحققون أهدافنا، وإن غداً لناظره قريب .

تصويبات

الخطأ	الصواب	صفحة سطر
أى وري أن	إى درى إن	٨ / ٥٠
لديكارتر	الديكارتي	٣ / ٥١
هذه	هذا	١ / ٥٩
مناقشة	مناقشته	١٤ / ٥٩
المحصنة	المحصنة	١١ / ٦٣
عن	علم	٢ / ٦٥
ينور	يشور	٥ / ٦٨
انهالا	انهيالا	١٩ / ٦٩
في جلبته	في جبلته	٧ / ٧٣
Dihel	DI Boer	١٧ / ٧٦
أخذه	أخذناه	٩ / ٧٧
الصراع	الصراح	٩ / ٧٨
ورقتها	ورقتها قريباً	١٢ / ٨٠

سلسلة خلاصة الفكر الاسلامي

الدكتور عبد الله بن نوال القطايعي الأضباري

La Filosofia Pelitica Mussulmana

١ - الفلسفة السياسية للإسلام طبع بأوربا ١٩٣٧

٢ - نظرية السببية بين مفكرى الإسلام وأوربا Princibio della Cusalita

٣ - الغزالي كفيلاسوف al Gazoli Come Filosofo

٤ - الفكر الفاسي للغزالي La bensée Philosophique d: Al Gasali

٥ - اعترافات الغزالي ، أو كيف أروخ الغزالي نفسه ؟

طبع بالعربية في القاهرة ١٩٤٣ - سنة ١٩٧١

٦ - الفلسفة السياسية للإسلام طبع بالعربية سنة ١٩٤٨ والثانية ١٩٥٥

٧ - أهداف الفلسفة الإسلامية : نشأتها وتطورها طبع سنة ١٩٤٨

٨ - التصوف الإسلامي بين الفلسفة والدين طبع سنة ١٩٥٠

٩ - المجموعة الوفية في فقه السادة الشافعية جزءان في العبادات وفي المعاملات

الطبعة الحادية عشرة سنة ١٩٦٢

١٠ - حرب الانصار في مصر طبع سنة ١٩٤٣

١١ - الانصار والإسلام طبع سنة ١٩٤٤

١٢ - رسالة الانصار طبع سنة ١٩٤٦

١٣ - شعراء الانصار طبع سنة ١٩٤٧

١٤ - جاضر يا فندم - محاضرات في علم النفس والتربية ألقاها المؤلف على طلبة

الكلية الحربية . وطبع في سنة ١٩٤٧

١٥ - المكتبة المدرسية ، أربعة أجزاء ، طبع في سنة ١٩٥٢ و ١٩٥٥

The Arabie Decimal classiftcation and its alfa betical, indlx-١٦

١٧ - مفتاح القراءة والكتابة أربعة أجزاء طبع في سنة ١٩٦٠

١٨ - نحو فلسفة تربوية مجربة لتعليم المهتمين القراءة والكتابة بالطريقة

الكلية طبع في سنة ١٩٦٣

The key for reading and writing Arabic language -١٩

٢٠ - La clé pour lire et ecrire L,arabe طبع في سنة ١٩٦٤

٢١ - هجرة الرسول الى عرب الانصار سنة ١٩٦٦